مَرجَاجُو

شَظايا ونُدُوب

© دار خيال للنشر والترجمة
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك :1-060-23-9931-978
الإيداع القانوني : مارس 2023.

بن شارف حميدي

مَرجَاجُو
شَظايا ونُدُوب

رواية

.01.

كانت ساعة الرّايس صالح تشير إلى التّاسعة والنّصف صباحا عندما كان واقفا عند جدار سفينته (المنصورة) يراقب من بعيد القوارب، وهي تحمل ما بقي من تلك الأكياس التي تتكدّس فيها مئات من الرّؤوس البشرية المقطوعة. كان الحمّالون ينزلونها من على ظهور مجموعة من البغال، التي اصطفت عند رصيف مرسى وهران الكبير، ثم يضعونها في القوارب. ووقف إلى جانب الحمّالين رجلان أحدهما ضابط الميناء، وأمّا الآخر فكان رجلا طوّالا، يلبس برنسا أسود، ويعتمر عمامة بيضاء ولم يسبق للرّايس صالح أن رآه من قبل في الميناء، فقدّر أنّه كان صاحب البريد الذي سيرافق تلك الأكياس إلى المحروسة كما أخبره ضابط الميناء، وما إن أنهى الحمّالون وضع آخر كيس في آخر قارب حتّى صافح الرّجل الطّويل ضابط الميناء، ثمّ ركب أحد القوارب الأربعة، وانطلق المجذّفون بها مسرعين صوب السّفينة الشّراعية ذات الصّواري الثلاث. التفت الرّايس صالح إلى مساعده الباش رايس عمر قائلا:

- إنّهم يقتربون. هل أنتم جاهزون؟

- نحن جاهزون سيدي. وأشار إلى مجوعة من البحّارة بإحدى يديه، فتقدّموا إلى حاشية جدار السّفينة، وألقوا مخاطيفهم

ومدّوا السلّم لصاحب البريد. ثمّ شرعوا في رفع الأكياس. كانت ثقيلة، وتتصاعد منها روائح قويّة، فحرصوا على إنهاء مهمّتهم في أسرع وقت ممكن.

كان باش رايس عمر، وهو يحثّ مرؤوسيه على الإسراع أكثر في عملهم، مذهولا لما تراه عيناه من العدد الكبير للأكياس المتراكمة في القوارب. نظر إلى الرّايس صالح ليرى إن كان هو الآخر قد هاله المنظر أيضا، فوجده ممسكا بغليونه المحشوّ بالتّبغ، يأخذ منه أنفاسا، ثمّ ينفثها سحابات في الهواء، وكمن كان يعرف ما يجول بعقل مساعده المبهوت، قال جملة واحدة من دون أن يلتفت، أو أن يعلّق شيئا:

- إنّها ستمائة رأس اجتزّت من جثث أصحابها.

لم يشأ باش رايس عمر أن يقطع حبل تفكير الرّايس صالح الذي كان يرمق بعينيه الزّرقاوين ذلك الرّجل الذي كان يصعد السّلم الممدود، بطوله الفارع، ولحيته الكثّة. كان وجهه ممتلئا ذا سحنة سمراء، ونظراته حادّة كصقر جارح. وعندما اقترب الأخير من حاشية جدار السّفينة مدّ إليه الرّايس صالح إحدى يديه، فقبض عليها الرّجل بإحدى يديه القويّتين، وقفز إلى سطح السّفينة بخفّة فهد رشيق يتسلّق أغصان شجرة سامقة. لفت نظر الرّايس صالح، وهو يحدّق في وجه الرّجل أثر ندبة في الشقّ الأيسر منه، كانت تنزل من أعلى جبهته، ثمّ تمتدّ من

أسفل عينه عبر خدّه إلى أن تختفي تحت شعر اللّحية الكثّة قبل أن يقول له:

- مرحبا بك على ظهر (المنصورة)، أنا القبطان رايس صالح وأضاف مبتسما وإن شئت قلت: الرّايس صالح العلج.

بدوره قدّم الرّجل نفسه بابتسامة مودّة، ولكنّ الرّايس صالح راوده إحساس غريب أنّها كانت تخفي كآبة مرّة.

- وأنا سليمان.. سليمان بن محمّد الهلالي، صاحب البريد وإن شئت قلت: سليمان مرجاجو.

- يبدو لي أنّ وصولكم إلى الميناء كان باكرا.

- لقد نصب جنود الحراسة ليلة الأمس خيمة عند اقترابهم من وهران. وقد ناموا هناك جيّدا، وأراحوا دوابهم وبغالهم، ومع خيوط الفجر الأولى واصلوا المسير معي إلى غاية الميناء الذي وصلناه قبل ساعتين من الآن.

كان سليمان مرجاجو هو الآخر يتحدّث، وفي نفس الوقت ينظر إلى هيئة الرّايس صالح الذي كان وجهه حليقا، وله شارب طويل معقوف ينتهي عند صدغيه، وأمّا شعره الفاحم الذي كانت تظهر خصلات منه تحت عمامة حمراء، فقد تخلّله بعض المشيب. كان يرتدي برنسا قصيرا من الصّوف تحته صدرية حمراء، وسرواله العريض الذي ينتهي إلى نصف السّاق كان مشدودا بحزام حريري أزرق يبرز من تحته يطغان جميل.

وقف سليمان مرجاجو إلى جانب صالح رايس ينظران إلى البحّارة، وهم يواصلون رفع الأكياس. كان يبدو أنّ الرّائحة المنبعثة منها قد ضايقتهم بشدّة، فالتفت الرّايس صالح إلى سليمان مرجاجو يسأله:

- ألم يكن من الأفضل إرسالها برّا على ظهور تلك البغال؟

- لا زالت الطريق غير مأمونة، ومن الممكن أن يتعرض جنود المحلّة إلى انتقام القبائل التي فقدت أحد أبنائها.

هزّ الرّايس رأسه متفهّما، ثمّ توجّه إلى مساعده بالقول:

- هل حدّدت المكان الذي سنضع فيه هذه الرؤوس؟

- أجل يا سيدي. كلّ شيء جاهز، لقد أفرغنا إحدى الغرف في مؤخرة السّفينة، بها تهوية جيّدة، وأرضيتها مفروشة بالنّحاس وقد أخذنا في الحسبان قوّة الرّوائح الكريهة لتلك الرؤوس فقمنا برش الحجرة كلّها بالقار.

- جيّد. حالما يفرغ البّحارة من رفع الأكياس كلّها، أنزلوها إلى هناك في الحال.

ثمّ أمر بقيّة البحّارين بالاستعداد للإقلاع.

كان الجوّ باردا في ذلك اليوم من مطلع العام 1806 حينما شعر الرّايس صالح بنسمات رياح غربية تصفع وجهه، فانطلق بصوته الجهوري حتى يسمعه كلّ من كان على سطح السّفينة من البحّارة:

- هيّا أرخوا الأشرعة، واضبطوها باتّجاه الرّياح، ارفعوا راية دولتنا المجيدة، وراية سفينتنا المظفّرة، لا تتركوا نسمة تمرّ دون أن تستغلّوها، انشروا الأشرعة الصغيرة للصّارية الأمامية، يجب أن نتحرّك بسرعة. نحن في زمن الشّتاء، وأحوال الجوّ غير مستقرّة. قال ذلك ثمّ تمتم بصوت خفيض لم يسعمه إلّا مساعده الباش رايس عمر:

. يجب أن نصل إلى المحروسة خلال ثلاثة أيّام، أو أربعة أيّام على أكثر تقدير.

كانت عقارب السّاعة قد تجاوزت العاشرة عندما بدأت (المنصورة) تتحرّك، وتمخر عباب البحر، بينما كان سليمان مرجاجو عند جدار مقدّمة السفينة يرنو بعينيه إلى خفّة ونشاط البحّارة الذين كانوا يدبّون كالنّمل جيئة وذهابا، فالبعض كان يشدّ الحبال، والبعض الآخر كان ينقل أغراضا عبر السّلالم التي تفضي إلى أسفل السّفينة، وآخرون يتفقّدون حالة الأشرعة في الأعلى، فيما كان ثلاثة من البحّارة فوق أبراج المراقبة يرسلون بأبصارهم بعيدا في الأفق اللّازوردي.

ومن منصّة القيادة، وقف الباش رايس عمر ممسكا بعجلتها يراقب البحّارة، ويشرف على كلّ صغيرة وكبيرة. هنا وقف سليمان بن محمّد الهلالي ينظر من بعيد إلى جبل مرجاجو يمرّ أمامه، فأحسّ بنبضات قلبه تتسارع، وبغصّة تخنق أنفاسه

ورغبة طاغية في البكاء. كان يشعر أنّها قد تكون آخر مرّة تكتحل فيها عيناه برؤية ذلك الجبل الذي لا زالت ذكرياته القديمة منقوشة في قلبه لم تغادره يوما.

في ذلك اليوم، وكما هو الحال في أكثر أيّام السّنة، كان جبل مرجاجو يبدو في الصّباح كهامة عظيمة تخترق سحب الضّباب من حولها، وشيئا فشيئا يتضاءل ذلك الضّباب، وينحصر في قمة تلك الهامة كعمامة مهيبة، ثمّ يتلاشى تماما فيظهر جحر الأفعى، أو حصن (سانتا كروز).

لم ير سليمان مرجاجو في حياته منظرا تكرّر مشهده يوميا أمام ناظريه، بذلك الحضور الطّاغي، كما كان منظر جبل مرجاجو الذي كان هو الشيء الوحيد من العالم الخارجي الذي ظلّ يطلّ عليه عبر ساحة ذلك السّجن الملعون قبل ثمانية عشر عاما عندما كانت المدينة تحت قبضة الإسبان. تذكّر صديقه (خوسيه) الذي كان معه في السّجن، وقاسمه نفس الزّنزانة فانحدرت على خدّيه عبرات حرّى بلّلت لحيته الكثّة، وأحسّ بعدها بطوفان من الصّور تتداعى في خياله، وبركان من العواطف المتأجّجة تتفجّر في أعماق روحه، فزادته حزنا على أحزانه طيلة الفترة السّابقة، ولم يخرجه من تلك الحالة الصّعبة إلّا صوت الباش رايس عمر، وهو يناديه:

- سيد سليمان مرجاجو.. إن شئت أن تنزل إلى غرفتك وترتاح قليلا، فسآمر أحد الخدم بمرافقتك، وسيأتونك بالغداء هناك.

- لا بأس. أجاب مرجاجو، وأشار موافقا إلى الباش رايس عمر برفع إحدى يديه، وحدّث نفسه بأنّه ربّما عليه أن يرتاح قليلا ويفرّ من تلك المناظر التي لم تزد إلّا في تأجيج أشجانه، وتقليب مواجعه. رافق الخادم سليمان مرجاجو عبر السّلالم إلى المدخل السّفلي للسّفينة حيث علّق فنار كان يضيء رواقا امتدت عند حاشيتيه عنابر كثيرة، كانت غرفته ما قبل الأخيرة على الجانب الأيمن، وما إن دخل الغرفة حتى وجد أنّهم قد وضعوا فيها فنارا معلّقا على أحد الرّفوف، وسريرا نظيفا بجانبه منضدة فاخرة ووراء السّرير ستائر زرقاء مذهّبة. شكر سليمان الخادم، وأغلق الباب، ثمّ نزع نعليه، وتمدّد بطوله الفارع على السّرير، وأزاح بيده إحدى تلك الستائر، فوجد خلفها نافذتين أسطوانيتين من الزّجاج تطلّان على البحر. كان منظرا أخّاذا وساحرا، ولكنّ مرجاجو سرعان ما أحسّ بالدّوار، فرفع عينيه إلى السّماء حينها ارتسم في خياله حديث أحد الحرّاس الذين رافقوه إلى وهران، وهو يروي لحارس آخر بعض ما جرى في ذلك اليوم المشؤوم، لا يزال سليمان مرجاجو يتذكّر تلك القصّة بكلّ تفاصيلها الفظيعة والمروّعة:

(كان أحد قادة الجيش ممّن كانوا معنا يجمع أربعة من الأسرى شبه العراة حوله، كانوا في قمّة الهلع؛ أعينهم زائغة وسحنات وجوههم متغضّنة. قد اغبرّت شعور لحاهم ورؤوسهم التي انتزعت عنها العمائم، بينما كان ذلك القائد يجلس القرفصاء، ويحمل في إحدى يديه سيفا، وهو يقهقه بأعلى صوته، قائلا لأحدهم:

. هيّا خذ هذا السّيف القاطع، واطعن به ذلك اليربوع الذي أمامك، وإلّا سوف لن تنجو أبدا!!

كانت فرائص ذلك الأسير ترتجف، ويرتسم الرّعب في عينيه فبدا وكأنّه يريد الإحجام عن تنفيذ ما أمر به القائد العسكري ولمّا لاحظ الأخير تردّد الرّجل المفزوع زعق في وجهه، فتقدّم الأسير مرغما، وأخذ السّيف من يد القائد، ثمّ ألقى نظرة مشفقة ويائسة على الأسير الذي كان إلى جانبه، وهو شاب لم تتجاوز سنّه السابعة عشرة، وما إن رفع الرّجل السّيف ليهوي به على رقبة الشّاب الصّغير، حتّى أخذ الأخير بالنّحيب والتوسّل فتردّد الرّجل من جديد، وعاد العسكريّ إلى وعيده. كان الشّاب المسكين يحاول جاهدا اتّقاء ضربة السّيف بيديه المرتجفتين ولكنّ طعنة السّيف كانت قد شقّت أحشاءه، وأخرست صرخة رجائه اليائسة إلى الأبد.

. آه... يا لك من مقاتل بارع! هيّا اعط السّيف لواحد من الخنزيرين الأخرقين اللّذين يقفان أمامك.

ووجّه نظره اتّجاه رجلين كانت ملامح الشّبه بينهما كبيرة ومن النّظرة الأولى لا يخامر الرّائي شكّ أنّهما كانا أخوين أو من عائلة واحدة. ولعلّ ذلك هو ما جعل كلّ واحد منهما يرفض أن يأخذ السّيف..وينصاع للأوامر، فقام العسكري من مكانه محمرّ العينين يزعق، ويلقي اللّعنات عليهما، وبعد أن قام بتقييدهما جيّدا. أخذ السّيف ووقف إلى الخلف منهما سائلا:

. هل تجمعكما صلة قرابة؟ ...(صمت)... من أيّ القبائل أنتما؟

ظلّ الأسيران صامتين لا ينبسّان ببنت شفّة كما لو أنّهما كانا يعرفان أنّ الإجابة عن أسئلة ذلك العسكريّ لا تغني عنهما شيئا من المصير الأسود الذي كان ينتظرهما.

. وترفضان الإجابة عن أسئلتي أيضا! أمّا أنا فلست أشكّ لحظة أنّ دماء المغاطيس تسري في دمائكما. فكما كان أسلافكما عبيدا للإسبان، بعتما أنتما أيضا نفسيكما لهؤلاء المارقين الذين يدّعون الزّهد والاستقامة. قال ذلك قبل أن يحتزّ رأس واحد منهما بضربة واحدة. فخرّت الجثّة بعدها، والدّم ينزّ منها كشاة مذبوحة. تدحرج الرّأس خطوة أمام الجثّة المتخبّطة في الدّماء وتقدّم العسكريّ حتّى وضع قدمه فوق ذلك الرّأس، والتفت

يكلّم الرّجل الآخر من جديد، وكان يشير بإحدى يديه إلى كومة عالية من الرّؤوس المقطوعة التي كانت في أقصى السّاحة التي دارت فيها رحى المعركة الدّامية:

. ألا تنظر إلى هناك! إنّه جبل من رؤوس رفاقكم الذين كانوا يصولون ويجولون قبل ساعة في ساحة النّزال.

. هل تعرف ذلك الرّجل الذي يقف هناك، ويضع أمامه تلك الأكياس الممتلئة بالذّهب؟

. أنا أقول لك: إنّه الخزندار الذي يعطي كلّ جندي يأتيه برأس محارب مارق، عشرة سلطاني ذهبي. نعم عشرة سلطاني ذهبي كاملة غير منقوصة! فرؤوسكم ثمينة جدّا، ولك عليّ عهد أنّي حالما أقبض ثمن رأسك أن أجعل جمجمتك في قمّة ذلك الجبل نظير رباطة جأشك، وقوّة تحمّلك. أمّا فيما يخصّ جثّتك وجثث باقي رفاقك، فسنتركها هنا حرّة طليقة، وإن استطاعت أن تهرب من الكلاب والوحوش البريّة، فسيكون ذلك أمرا جيّدا.. والآن دعني أخلّصك من جحيم الانتظار، وأسرع أنا الآخر لأقبض الثّمن، ومن يدري فقد تنفد تلك الأكياس الذّهبية بسرعة.

وبنفس الحركة الخاطفة حصد رأس الرّجل الآخر قبل أن يلتفت في الأخير إلى الأسير الذي ظنّ أنّه قد نجا من المجزرة بقتله لصاحبه أوّل الأمر، قائلا بضحكة استهزاء:

. في الحقيقة أنت الأحسن من بين كلّ هؤلاء الملاعين، أنا أعترف لك بذلك، ولكن!... وهنا أطلق ضحكة هستيرية مجلجلة... إن بقيت حيّا يا صديقي ستفوّت عليّ مكافأة قدرها عشرة سلطاني ذهبي، ولا أظنّك ترضى لي أن أتكبّد خسارة بهذا المبلغ المهمّ، لذا سأعرض عليك إن شئت أن تبقى حيّا أن تضع أمامي، والآن، هذا المبلغ، وأعدك بعدها أنّي سأطلق سراحك وتصبح بعدها حرّا... ها أنت ترى أنّك غير قادر على الدّفع، قال القائد العسكريّ ذلك، وهو يحدّق إلى نظرات الأسير المتوسّلة وإلى يديه المرتعشتين، ثمّ واصل:

. لم أنت خائف الآن أيّها المقاتل البارع، ألم يسبق لك أن متّ من قبل ؟! ههههه...

. الرّحمة...الرّحمة.. أنا..أنا.. ولم يكمل المسكين كلماته حتّى طعنه العسكريّ طعنات فتّت كبده...

لم تفارق تلك القصّة خيال سليمان مرجاجو منذ أن كان في طريقه إلى الميناء، كان يسأل نفسه كيف يتسنّى للنّفس الآدميّة أن تنحدر إلى مثل ذلك القاع السّحيق من الوحشية. لم يكن يتصوّر يوما أن يقتل إنسان إنسانا آخر لمتعة القتل، وتلذّذا بإزهاق النّفوس، والتمثيل بالجّثث الهامدة. ظلّ يسأل نفسه أيضا إن كان يوجد من بين أولئك الضّحايا من رابط معه شهورا طويلة عند جبل المائدة، عندما كانوا يحاصرون الغزاة

الإسبان في وهران قبل خمسة عشر عاما. كان مجرّد التفكير في ذلك يجعله على عتبة الجنون. فكيف وصل به المطاف أن يسافر في مهمّة قذرة، وهو الذي كان يصرّ منذ البداية أن يبقى بعيدا عن أتون تلك الحرب المشؤومة: حرب تقطّع أواصر العائلة الواحدة.

كان مستعدّا أن يدفع ثمن قراره، ولو كلّفه الأمر أن يقتل في سبيل ذلك. ولقد نجح طوال تلك الحرب الحالكة أن ينجو من شرر نيرانها المتأجّجة، لو لم يأته هذا التكليف بحمل رسالة باي وهران إلى عاهل الجزائر أحمد باشا فيها تفصيل كلّ ما وقع.

لقد جعله قبول هذه المهمّة يحسّ بألم ووخز في الضّمير، أن يكون قد تورّط أخيرا بصورة ما في تلك الحرب الملعونة. (كيف يرسل لي الباي محمّد المقلّش أنا بالضّبط أن أحمل البريد إلى الجزائر، وأرافق تلك الرّؤوس المقطوعة إلى هناك وأنا لست هو صاحب البريد في الأصل؟! هل كان يريد أن يورّطني فيما أنا فيه الآن؟ لم أطلب منه إلّا أن أرحل بسلام إلى أهلي الذين انقطعت عنّي أخبارهم منذ سنوات طويلة، ولست أعرف عنهم شيئا. كنت صريحا معه منذ البداية يوم أن قلت له: لا أريد القتال أو المشاركة من قريب أو من بعيد في حرب بلا أمجاد. لا أريد أن أمحو كلّ شيء جميل جعلته بيني وبين الله.) كان سليمان

مرجاجو يتلوّى في مكانه كالملدوغ، تنهشه المخاوف، ويطوّح به الفزع ووخز الضمير في كلّ مكان..

وفي أثناء ذلك الحديث النّفسي العاصف فتح باب الغرفة ودخل الخادم الذي كان يحمل بين يديه صينية نحاسيّة، وتقدّم بها خطوات قبل أن يضعها على المنضدة التي كانت أمام السّرير:

. الغداء سيدي.

جلس مرجاجو، وأدلى رجليه إلى الأرض. شكر الخادم، ولم يشأ أن يقول له إنّه لا يرغب في تناول الطّعام، وأن لا شهيّة له مع هذه الصّور الفظيعة التي نغّصت عليه كل شيء، كان عقل مرجاجو ذاهلا، وهو يضع مرفقيه على ركبتيه، ورأسه بين أصابع يديه، أحسّ أنّ رأسه ينوء بأثقال كالجبال، فلقد أرهقته الذّاكرة المثقلة بحمل السنين، ونزيف الرّوح الذي لا يريد أن يتوقّف، كانت الصّور تأتيه من بعيد، في موكب تتزاحم فيه الشّخوص، وتختلط فيه الأحاسيس؛ صورة زوجته مريم بوجهها الطّفولي، وهي جذلة تضجّ فرحا عندما كان يعود سالما من مغامراته على ضفاف الموت، مريم التي كانت تظهر، وتختفي أمام عينيه من وراء غبش الأيام البعيدة كالخيال الملحّ الذي يقترب منه حتى يكاد يلامسه بأطراف أصابعه، ثمّ يتبدّد فجأة شعاعا ضائعا في السّواد الحالك. كانت تأتيه لتقول له شيئا واحدا، ثم تختفي ليظل ذلك الصّوت يتردّد في أغوار روحه

السّحيقة: (الوصية سليمان الوصية.. زينب أمانة في رقبتك) وصورة زينب، تلك الأمانة التي أضاعها مكرها، وحتّى عندما أراد أن يعوّضها عن كلّ السّنوات التي فارقها فيها، كان الوقت قد فات.

لم يملك سليمان مرجاجو في تلك اللّحظات الصّعبة التي كان يحسّها، إلّا أن أطلق من أعماق روحه زفرة ألم مكتومة، كانت مشفوعة بضراعة استغاثة: (يا الله... ساعدني... وأرح قلبي من هذه العذابات، وارزقني سكينة من عندك.)

وأحسّ مرجاجو بعدها أنّه كان متعبا حقّا، وله رغبة جارفة في النّوم...

.02 .

في المساء، ومع شمس الأصيل الذّهبية، وجد سليمان مرجاجو في نفسه رغبة وفضولا للخروج من الغرفة واستكشاف عوالم البحر السّاحرة، وعند خروجه من غرفته وصعوده السّلالم إلى سطح السّفينة لمح الرّايس صالح يدير عجلة القيادة بنفسه من على المنصّة. وبإشارة من يده، ألقى السّلام عليه من بعيد وتقدّم خطوات إلى الأمام، فأحسّ بنسمات عليلة تداعب وجهه، وتملأ رئتيه بهواء منعش.

كانت السّفينة تبحر غير بعيد عن اليابسة، حيث يمكن للمرء أن يرى سلسلة الجبال المغطّاة بالأشجار التي تظهر من وراء ضباب شفيف، وعند حاشية جدار مقدّمة السّفينة وضع سليمان مرجاجو يديه، وراح ينظر إلى صفاء ماء البحر، حتى أنّه كان يرى حركة الأسماك الدّؤوبة. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يسافر فيها عبر البحر، فبدا له أفقا لا نهائيا؛ جميلا وغامضا في نفس الوقت، وشدّ انتباهه منظر الشّمس، وهي تمدّ بأشعّتها بساطا ذهبيا فوق زرقته الفسيحة، ولاحت من سليمان مرجاجو نظرة إلى السّفينة، فقد بدت له من المكان الذي كان يقف فيه واسعة الأبعاد، وهندسة بنائها رائعة، مكّن لها سرعة في الحركة، ورشاقة في المناورة، وبحسّه كجاسوس سابق راح

ينحني إلى الأمام قليلا ليرى فوهات المدافع التي زوّدت بها السّفينة، كانت كثيرة، فلم يستطع أن يعدّها جميعا، ولكنّه كان متأكّدا من أنّها تتجاوز العشرين. كان الوقت يمضي سريعا والشّمس توشك على المغيب حتّى تذكّر سليمان مرجاجو شيئا مهمّا قد نسيه في الغرفة، فغادر المكان، ونزل السّلالم بسرعة ولكن من دون أن يثير انتباه أحد. فتح باب الغرفة، و ذهب رأسا إلى قرب الوسادة، فرفعها، ليتنفس الصعداء بعدما وجد الصّرتين في مكانهما، وكان قد أخرجهما من تحت حزامه عندما أراد أن ينام، تخيّل في نفسه لو أنّ أحدهم قد رآهما، فأغراه بريق الذّهب، وأخذ حصيلة نصف ثروته التي قام بتصفيتها فيما خفّ حمله، وغلا ثمنه. ثمّ قال متمتما: (ثلاثمائة سلطاني ذهبي مبلغ غير هيّن) وأعاد الصّرتين إلى تحت حزامه، بعدما رأى أنّ صينية الغداء لازالت في مكانها، ثمّ قام فأزاح السّتارة الزرقاء المذهّبة عن النافذتين الأسطوانيتين، فتأكّد أنّه كان وقت الغروب، فقام ليصلي المغرب، وجلس بعدها للذّكر، وتلاوة ورده اليومي من القرآن، كما كان يفعل ذلك دائما منذ كان في قبضة الإسبان سجينا في وهران، ومرابطا مع الطّلبة في جبل المائدة لحصارها لاحقا. كانت تلك هي إحدى ساعات صفائه وسكينته التي تجلو عن قلبه همومه الكثيرة، ولكنّه بعد نصف ساعة من التّلاوة سمع طرقا على الباب، فقام ليفتحه، ليجد

الخادم الذي رآه في الصّباح يخبره أنّ الرّايس صالح يدعوه إلى غرفته ليتناول معه وجبة العشاء. سار سليمان مرجاجو وراء الخادم في ذلك الرّواق الممتد إلى آخر غرفة من الجهة المقابلة التي كانت فيها غرفته. دقّ الخادم الباب، فانطلق من داخل الحجرة صوت جهوري يأذن للزّائر بالدّخول. استقبل الرّايس صالح ضيفه بحفاوة حارّة أسعدت مرجاجو كثيرا. كانت غرفة ربّان السّفينة جميلة، وأوسع قليلا من غرفة مرجاجو. لاحظ أنّها كانت مفروشة بزرابي فاخرة، وتحفّها وسائد مخملية ناعمة، وفي الوسط وضعت منضدة مثمّنة كبيرة عليها صينية نحاسية فيها أطباق من الطّعام. أشار الرّايس صالح إلى ضيفه بالجلوس، قائلا:

. أهلا بك سيد مرجاجو مرّة أخرى. كان من المفروض أن نستضيفك في الغداء، ولكن كما ترى العمل في البحر ليس سهلا، وفي أحيان كثيرة يجب عليك أن تشرف بنفسك على كلّ صغيرة وكبيرة.

. يبدو أنّ حياة البحر قد أصبحت جزءا من حياتكم العاديّة؟

. أجل. وحتّى في فصل الشتاء قد تأتيك مهمّات كهذه، هذا بالإضافة إلى الخرجتين اللّتين نقوم بهما كلّ سنة في جهادنا البحري، واحدة في الرّبيع، والأخرى في الصّيف، وقد تمتدّ كلّ واحدة منهما من الشّهر إلى الأربعين يوما. الصّراع هنا في

المتوسّط مرير منذ قرون، وهؤلاء الكفرة من الدّول الأوربية إن لم تكن لك مخالب جارحة، فستلتهمك حتما أمعاؤها الشرهة. آه... الأمعاء الشّرهة! يبدو أنّي جائع، وقد نسيت نفسي في غمرة الحديث... هيّا سيد سليمان! تفضّل، وكل جيّدا، فليل الشّتاء طويل، وسيكون لنا بعد ذلك كلّ الوقت للحديث. كان العشاء لذيذا؛ أطباق من السّمك المقلي، وبرغل مفلفل بشرائح اللّحم. كانت رائحة التوابل شهيّة، ولكنّ سليمان مرجاجو راح يوزّع نظراته بين الفينة والأخرى، مرّة إلى الجدار المقابل له حيث علّقت سيوف، وبنادق طويلة تنتهي فوهاتها بحراب حادّة، ومرة إلى حمرة وجه الرّايس صالح بفعل ضوء الفنار المعلق في سقف الغرفة، وما إن أنهيا عشاءهما حتى اتّكأ كلّ واحد منهما على تلك الوسائد المخملية الوثيرة، حينها استأنف الرّايس صالح حديثه قائلا:

. كما قلت لك سيد سليمان الحياة في البحر صعبة، ولكن ما لم أقله لك، إنّه بالرغم من أنّ عمري قد شارف الخمسين، فلا زلت شغوفا بهذا البحر الرّهيب، فأنا لا أستطيع أن أتخيّل نفسي أعمل شيئا آخر، وبتعبير أدق أنا لا أحسن إلّا أن أكون بحّارا مع أنّي أعلم علم اليقين أنّ أيّ بحّار مثلي معرض في أيّ وقت من الأوقات إمّا للأسر أو للغرق أو حتّى للقتل. لقد أصبحت جدّا منذ خمس سنوات، ولي حفيدان، ويغريني أن أبقى إلى جوارهما

ولكنّي كلّما أتأمّل زرقة البحر تتملّكني رغبة جامحة في السّفر والمغامرة. وبعد كلّ تلك السّنوات الطويلة والمحفوفة بالمخاطر استطعت أن أجمع ثروة لا بأس بها من الغنائم الكثيرة التي كنّا نحصل عليها. هذه الثروة هي التي جعلت اليوم من ابني علي واحدا من أغنى تجّار المحروسة، كما أملك الآن قصرين فخمين أحدهما في المدينة، والآخر في بعض الضواحي المجاورة للمدينة والتي يسميها أهل الجزائر بأراضي الفحص. حباني الله هناك بجنائن بديعة؛ أشجار مثمرة من كلّ نوع؛ برتقال ورمّان وعنب أحرص أن أخرج إليها برفقة العائلة، وأتنزّه في جمالها مثل باقي الأثرياء الذين يتركون صخب المدينة، وقيظ أصيافها الحارقة فيتوجّهون إلى تلك الجنائن أيّام الثلاثاء، والجمعة حيث يكون القادة العسكريون، وكبار الموظّفين في عطلة رسمية. لقد سعيت واجتهدت أن لا يعيش أبنائي، وأحفادي كما عشت أنا، لأجل ذلك كنت أقول لهم دائما أن يحمدوا الله على هذه الحياة المخملية النّاعمة التي يحيونها. لقد بذلت لهما كلّ ما لم يتح لي أنا أن أتنعّم به، فقد نشأت يتيم الأب والأم، وغادرت مرتع طفولتي في مدينة (ليفورنة) لمّا لم أجد من يعيلني. كنت أبلغ من العمر حينها خمسة عشر عاما، فتوجّهت إلى (نابولي) حيث عرضت على أحد معارف أبي أن أعمل في سفينته التّجارية التي كانت تبحر إلى أمريكا والبرازيل، فتأتي من هناك بالبن، والسّكر

والتّبغ. كانت تجارة تدرّ على أصحابها أموالا طائلة، وكنت أنا أيضا سعيدا بتلك التّجربة التي تعلّمت منها أشياء كثيرة وتعرّفت على عادات، ولغات شعوب بعيدة عنّا تقع في أقصى الأرض، كما أنّي كنت أحصل على أرباح لا بأس بها جعلتني أحلم أن تكون لي يوما سفينتي الخاصّة، وبحّارة يعملون تحت إمرتي وعندها أستطيع أن أسافر في كلّ أقطار الأرض التي أريد. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي غيّر وجهة حياتي إلى الأبد، ففي إحدى رحلاتنا البحرية حينما كنّا عائدين إلى نابولي اعترضت سفينتنا فرقاطة جزائرية قرب مضيق جبل طارق، فحاولنا المناورة والتحرّك بسرعة إلى اليابسة، إلّا أنّ مطاردة الفرقاطة الجزائرية لم تترك لنا أيّ أمل للنّجاة، فقد أطلقت من فوهات مدافعها عدّة طلقات ألحقت أضرارا بالغة بالسّفينة، وحطّمت إحدى صواريها، فأمر ربّان السّفينة أن يرفع علم الاستسلام الأبيض ونستسلم لمصيرنا الأسود، بعدها اقتيدت سفينتنا إلى ميناء الجزائر الذي وصلنا إليه في ذلك اليوم المطير، حيث دوّت المدافع لاستقبال الفرقاطة الظّافرة، وهي تجرّ غنائم ثمينة تقدّمت زوارق، فأنزلونا فيها، كنّا عشرة من البحّارة، ومعنا الكاتب، وربّان السّفينة الذي كان برفقة أخته التي مات عنها زوجها، فقرّرت الرّجوع من أمريكا، والعودة للاستقرار نهائيا في إيطاليا، كان معها ابنها الصّغير الذي لم يتجاوز الرابعة من

العمر. وعند رصيف الميناء وضعت في أيدينا وأرجلنا الأغلال والسّلاسل باستثناء المرأة وابنها اللّذين عوملا معاملة حسنة وفي الرّصيف الحجري الذي يربط الميناء بالمدينة كنّا نسير منهكي القوى، مطأطئي الرّؤوس نرسف في أغلالنا، وقد احتشد على جانبيه جمع كبير من النّاس الذين كانوا يتهامسون بينهم ويشيرون إلى ألبستنا الغريبة. ولمّا وصلنا إلى قصر الجنينة مقر حكم الدّاي، خرج لنا وزيره الأوّل الخزناجي، وإلى جانبه كتّاب من القصر، يحرسهم الشّواش من أجل أخذ نصيب الخمس من الغنيمة، وكانت العادة أن يكون قبطان السّفينة، وكاتبه من نصيب الخزينة التي تستفيد لاحقا من مبالغ الفدية الكبيرة التي تدفعها الدّول الأوربية لتحرير أسراها، وقد كان من حظّي أنّي ألحقت بهذين الرّجلين المهمّين من طاقم السّفينة، وهذا لمّا رأوا حداثة سنّي. أمّا باقي الأسرى فقد اقتيدوا إلى السّجن ليعرضوا مع صباح اليوم القادم في ساحة الباتستان حيث كان يباع الأسرى لتجّار المدينة، ويقيّد الكتّاب هناك ما تجمّع من المبالغ وتقسم بكيفية معلومة بين الغانمين. أحضروا لكلّ واحد منّا نحن الثلاثة: شواشي، وقمصانا لنلبسها، وغطاء للنّوم، وكلّها كانت رثّة من كثرة الاستعمال، وبتنا ليلتنا الأولى مع الخدم في القصر، وفي الصّباح جاء رجل ينادي على اسمي، فسرت وراءه إلى غاية الميناء، حيث أدخلني لمقر وكيل الحرج، الذي يعدّ الوزير

الثالث من حيث الأهميّة في الدّولة، والقائم على الشؤون البحرية، حدّق الرّجل مليّا في وجهي، ثمّ سألني عدّة أسئلة بلغة (الفرانكا لينغوا) عن سنّي وحرفتي ومهاراتي، وبعدها نادى طبّاخه، وكان شيخا حسن الهيئة، فدفعني للخدمة تحت إشرافه، فكنت بعدها أقدّم القهوة لضيوف وكيل الحرج، من قناصل الدّول الأوربية، وكبار الموظّفين، ورياس البحر الذين كانوا يجتمعون به قبل وبعد خرجاتهم للمطاردة والغزو، كنت أحصل بحكم تلك المهمّة على عدّة هدايا ومكافآت، إلّا أنّ العادة جرت أن تجمع المداخيل كلّ أسبوع، وتقسم بالتّساوي بين الخدم في يوم الثّلاثاء. اجتهدت أن أقتصد في صرف المبالغ التي كنت أجمعها لأفتدي نفسي من الأسر، وقد ساعدني وكيل الحرج في تلك المهمّة بعدما رأى حسن سلوكي، فمنحني فرصة العمل في سفن رياس البحر، فكنت أنال أرباحا مكنتني بعد سنتين من المعاناة في ذل وألم الأسر من جمع مبلغ الفدية المطلوب، ونلت بعدها حريتي، وشطبت من سجلات الأسرى. كنت قادرا على مغادرة الجزائر، والعودة إلى موطني الذي ولدت فيه، ولكنّي كنت أعرف أن لا أحد لي هناك أشتاق لرؤيته مرّة أخرى، فقرّرت البقاء في المحروسة، بعدما اعتدت العيش في حياة البحر، وكنت في فترة أسري ألقى معاملة حسنة من أكثر البحّارة الذين تعاملت معهم، لقد غمروني بعطفهم، ومنهم حتّى

من ساعدني في جمع مال الفدية. اكتشفت بطول المقام هناك نبلا وكرما جعلاني أفكّر في اعتناق الإسلام، وهذا ما قرّرته فعلا ولكنّي لم أعلن ذلك لأحد، وقد كان هذا كفيلا لوحده بأن أعتق مباشرة من الأسر، كما هي العادة في إيّالة الجزائر، ولكنّي لم أفعل ذلك لأنّي كنت ولازلت أرى أنّ مسألة القناعة الدينية مقدّسة لا تباع ولا تشترى بمال، ولا بأيّ مقابل، ولو كانت هي الحرّية ذاتها، المهم أنّي أصبحت مسلما، وأصبح اسمي (صالح العلج) بدل اسمي الأصلي (باولو جيوفاني)، وكنت بحّارا كغيري من البحّارة الجزائريين، تدرّجت بفضل كفاءتي المشهودة من رتبة (نوتي) بسيط إلى باش رايس، وجاء بعدها الحدث الذي جعلني واحدا من أهمّ رياس البحر الجزائريين، فقد غزا الأسطول الإسباني السّاحل الجزائري صيف سنة 1775، وكانت مراكبه الخمسمائة مبثوثة على صفحة البحر كأسراب الجراد أذكر أيّامها حجم الهلع الذي حلّ بالنّاس، فراحوا يصعدون إلى سطوح منازلهم ليشاهدوا الأفق البحريّ أمامهم تغطّيه سفائن الإسبان. كانوا يتضرّعون إلى الله أن يكفيهم شرّ تلك الهجمة الوشيكة على أسوار المدينة. حينها تداعى الجميع لمواجهة العدوّ في المعركة الحاسمة، ففتحت مخازن السّلاح، وجنّد كلّ من كان قادرا على القتال. وبعد أن مكث الإسبان في مراكبهم ثلاثة أيّام نزلوا عند السّاحل، وعسكروا قرب (الحرّاش)، لم يكن بينهم

وبين أسوار المحروسة إلّا مسيرة ساعة ونصف، ولكنّهم فوجئوا بمقاومة رهيبة، وخاصّة بعد أن رأوا المدد المتواصل الذي كان يأتي من كلّ جهات البلاد، فكان جيش صالح باي أوّل الواصلين من الجهة الشّرقيّة. كانت هجمته خاطفة وغير متوقّعة، حيث أطلق الآلاف من الإبل في وجوه الإسبان، الذين هالهم منظر الإبل الهائجة برغائها المفزع، فتبلبلت صفوفهم، وتشتّت شملهم، وبمرور الوقت أيقنوا بهزيمتهم المحتّمة، فتولّوا هاربين إلى شاطئ البحر، الذي كان يبعد بنحو ميل ونصف عن ساحة المعركة، وتركوا وراءهم كلّ مدافعهم وعتادهم، فاستحرّ فيهم القتل، وهزموا شرّ هزيمة، وأمّا الأعداد المتبقّية منهم، فقد ركبوا زوارقهم التي أسرعوا بها إلى السّفن، حيث رفعوا أعلام الحداد السّوداء، وقفلوا راجعين في أسوأ حال، ولكنّ مصائبهم لم تكن لتتوقّف عند ذلك الحدّ، فقد تعقبنا فلول مراكبهم، وأطلقنا عليها من سفننا نيران مدافعنا، فأسرنا منهم أعدادا كبيرة وغنمنا منهم الشّيء الكثير، في تلك الظّروف ظفرت بقيادة سفينة ذات صاريتين من جملة ما غنمناه من الإسبان، ومن ذلك الحين أصبحت ربّانا عليها نظير ما أبليته من مهارة في مناورة سفن الأعداء، وبعد تلك الحرب أصبحت مقّربا أكثر فأكثر من وكيل الحرج، الذي بدأ يعهد إليّ بمهمّات كثيرة، أثبتّ فيها جدارتي بمنصبي الجديد، فقرّر الدّاي حسن باشا رحمه الله

بنفسه أن يعهد إلي بقيادة فرقاطة حربية أكبر، هي هذه السّفينة المظفّرة (المنصورة)، والتي يرجع إليها جزء كبير من نجاحاتي وما وصلت إليه اليوم بفضل قوّة نيرانها، وخفّة حركتها...

كان سليمان مرجاجو يسمع للرّايس صالح، وهو يسرد مغامراته الكثيرة في عرض البحر المتوسّط، وبحر الظّلمات، ولقد آلمه أن لم يكن ذلك الأب المثالي الذي كانه الرّايس صالح، وفي لحظة ما توقّف الرّايس صالح عن الكلام، ولعلّه لاحظ شرود ضيفه، فتوجّه إليه بسؤال أربكه قليلا:

. وأنت سيّد مرجاجو لا أشكّ أنّ لك مغامرات كثيرة، وسلسلة من التّجارب العظيمة، وأصدقك القول إنّ مظهرك يبدو لي كرجل مقاتل أكثر من رجل عاديّ يحمل الرّسائل بين الحكّام، أو كاتب ينعم بعيشة وادعة، وهادئة.

. أنت محقّ. فكلّ واحد منّا له مغامراته التي قادته إلى رسم حياة لم يكن يتصوّر يوما أن يعيشها بكلّ حلوها ومرّها، أمّا عن مظهري ومخبري، فأنا نفسي لم أعد أعرف من أكون، أحسّ أنّي أكثر من إنسان واحد، وأشعر شعورا عميقا أنّي قد متّ وبعثت من جديد مرّات كثيرة طيلة ثمان وثلاثين سنة سلختها من حياتي؛ من صائد للأسود والفهود بين صخور جبل قريون في شرق البلاد، إلى جاسوس وقع بين يدي الغزاة الإسبان في غربها

فزجّ به في السّجن سنين عددا، ومن مرابط عند أسوار مدينة وهران لتحريرها، إلى رسول لدى البايات وناسك بين الكتب والمخطوطات. لقد كانت حياتي دائما كتلك السّفينة التي أبحرت ذات يوم، ولم تجد أبدا ساحلا ترسو عنده، ولا زالت تعصف بها الرّياح، فهي لا تعرف إلى أين أو كيف ستكون النّهاية..

. وهل لك عائلة وأولاد؟

. العائلة.. آه.. ذاك هو وجعي، وتلك هي الأثقال التي قصمت ظهري. لقد مضى وقت طويل منذ أن رحلت عن العائلة، ولم أجد طريقي للعودة إليها منذ تسع عشرة سنة إلّا زائرا عابرا يمكث أيّاما ثم يعود من حيث جاء، وحتى تلك الزّيارات التي كنت أقوم بها كلّ سنتين أو ثلاث سنوات انقطعت من مدة طويلة، والتجّار الذين كنت أتسقط من خلالهم الأخبار توقّفوا عن السّفر برّا، فقد ساءت الظّروف، ولم تعد الطّريق مأمونة وأطلّت الفتن بقرونها، ولا أخفي عليك أنّي قد بتّ أعيش جحيم الأسئلة التي لم أجد لها أجوبة شافية، وتنهشني الهواجس التي لا زالت تفزعني في يقظتي ونومي، وكيف يهدأ لي بال، وأنا لا أعرف إن كانوا أحياء، أم أمواتا. هل غادروا مضاربهم في شرق البلاد، أم لا زالوا هناك؟ من أجل هذا قرّرت الرّحيل عن وهران، وقد أبلغت منذ مدّة الباي محمّد بن عثمان المقلّش بذلك، فاستبقاني لبعض الوقت إلى أن وصل جنود المحلّة بهذه

الرّؤوس إلى وهران قادمين من تلمسان حيث كان يوجد الباي ومعهم إذن لي بالمغادرة، والأمر بأن أسير بهذه الأكياس إلى الجزائر عبر البحر حاملا لرسالة منه إلى الدّاي أحمد باشا.

. اعذرني سيد مرجاجو، إن كنت متطفّلا، ولكنّي سأكون ممتنا إن اعتبرتني صديقا لك، وحدّثتني عن حياتك ومغامراتك فلقد أثار كلامك في نفسي فضولا لمعرفة المزيد.

. لا بأس، ولا داعي للاعتذار، فأنا أيضا أحتاج أن أنفض التّراب عن صفحات الذّاكرة المثخنة، وأجد من يتتبّع معي خطو السّنين الماضية، وأن يكون شاهدا عن واحد من أولئك الذين قادتهم غواية المغامرة إلى أن يعيشوا أحداثا لم يتخيّلوا يوما من الأيّام أن يكابدوا مثلها، أو حتّى قريبا منها، لقد مضى كلّ شيء على ذلك النّحو المدهش منذ البداية...

وهنا بدا في عيني الرّايس صالح الشّغف لما سيقوله مرجاجو فمنذ تلك اللّحظة الأولى التي قابله فيها وجها لوجه حدّثه حدسه، الذي لم يخطئ يوما، أنّ ذلك الرّجل لا ينبغي أن يكون من طينة الرّجال العاديين الذين كان يراهم كلّ يوم، وأنّ وجهه الأسمر، ونظراته الحادّة يخفيان روحا مفعمة بالذّكريات الحزينة، والأسرار المخبوءة؛ كذلك قالت الرّوح من شرفات لسانها البليغ..

.03 .

ولدت أنا سليمان بن محمّد الهلالي، كما قيل لي، قبل سبع سنين عن نزول الإسبان في السّاحل الجزائري، وعلى هذا فقد ولدت العام 1768 من قبيلة نزحت من الصّحراء إلى شرق البلاد عند سفوح جبل (قريون) ببايلك قسنطينة بحثا عن الكلأ والماء، كانت أهمّ العوائل المشكّلة لقبيلة (الجوامع) التي أنتمي إليها هم أولاد ناجي، وأولاد بن عمرة، وآل الهلالي، وقد عرف آل الهلالي على الخصوص بالفروسية، وشدّة البأس في الحروب والكلّ كان يعرف فضلهم، وكرمهم، فيقدّمونهم في الوفود، ولا يعقد شيء في غيابهم، أو ضدّ رغبتهم، ولكنّ عددهم كان ينقص بفعل الأمراض والجوائح، وسنوات القحط، والجفاف، فلم يأت إلى بايلك الشّرق، في ذلك العام الذي أجمعوا فيه أمرهم على الاستقرار أخيرا، إلّا والدي الحاج محمّد الهلالي، وأخوه الأكبر الشّقيق عيسى، ولم يكن لوالدي من زوجته الأولى التي ماتت في الصّحراء إلّا ابن واحد كان في العشرين من عمره هو أحمد وبنت تسمّى أم الخير، فيما كان لأخيه عيسى ثلاثة أبناء، وبنت واحدة. ولمّا كانت العادة أن يتزوّج الأقارب فيما بينهم، فقد تزوّج أخي أحمد من بنت عمه ذهبية، وتزوّجت أختي أمّ الخير من عمر، وهو الابن البكر لعمي عيسى. وبعد أن وضعت القبيلة

رحالها ببضعة أشهر في مضاربها الجديدة، تزوّج أبي من ابنة صديقه الصّادق بن حوّة من عائلة بني عمرة، وكانت تلك المرأة هي أمّي زينب التي ولدتني، وولدت أخا آخر هو عبد الرّحمن ولكنّها لم تعمّر طويلا، فقد اختارها الله لجواره، ولم أكن قد بلغت بعد العاشرة من عمري.

لازلت أذكر من طفولتي زهورا بألوانها البديعة، وروائح عطرية عابقة عند سفوح تلك الجبال التي كانت تكلّل قممها الثّلوج في الشّتاء، وينسج الرّبيع في مروجها الخضراء سحره الباهر. كانت جنّة حقيقيّة، تجري تحت زرقة سمائها الأودية، فينساب ماؤها الرّقراق على طول تلك الامتدادات المتعرّجة، هناك مرّت طفولتي في خشونة حياة البادية، وشظف عيشها القاسي. لم تكن هناك مدارس، فالجهل كان سيّد القبيلة الأوّل، ولكنّي مع ذلك أعتبر نفسي محظوظا، فقد كان أبي حافظا لكتاب الله، وكان يرى أنّ من واجبه، وتبرئة لذمّته أمام ربّه أن يحفّظه لغيره، فأصبحت أنا وأخي الأصغر عبد الرّحمن تلميذيه اللّذين كان يحرص على نقل تلك الأمانة الثقيلة لهما، كان ذلك بعد عودته من الحرب على الإسبان، والتي استشهد في ساحتها أخوه الوحيد عيسى فأصبح يشعر بعده بالوحدة، وتفاقم ذلك الشّعور القاتل بعد موت أمّي عاما بعد ذلك، فبدا وكأنّه يشيخ بسرعة، ولم يعد أمامه إلّا الجلوس مع جدّي لأمّي، ورفيق دربه، الصّادق بن حوّة

يعيدان حديث الأيّام الخوالي، وأحداث رحلتهم سيرا على الأقدام لأداء مناسك الحجّ. لقد غابا عن مضارب القبيلة ثلاث سنين كاملة، زارا فيها مكّة والمدينة وبيت المقدس في فلسطين، وكأنّي أنظر إليه الآن أمامي، وهو جالس فوق فراشه الصّوفي، متلفّعا ببرنسه الأبيض، وعمامته التّي يلفّ طرفها حول رقبته، وفي يده اليمنى مسبحة لا تكاد تفارقه، وما إن نشرع في عرض محفوظنا من القرآن بين يديه، حتى تبدأ أصابع يده اليسرى في مداعبة لحيته الفضّية، وعيناه مثبتتان في نقطة ما من الأرض، وإذا أخطأنا خطأ يسيرا، هزّ رأسه يستوقفنا لنتدارك تلك الهفوة، وإلاّ أمرنا بإعادة الحفظ من جديد. كنت سريع الحفظ، وقويّ الذّاكرة عكس أخي عبد الرحمن، ولكنّنا كنّا شقيين معا يصيبنا السّأم بسرعة، فنستغفله في مرّات كثيرة، ونترك ألواح الكتابة، ونهيم على وجوهنا في البراري، وقد ينسينا شغف اللّعب حتّى نصل إلى مشارف الوادي الكبير، فنولّي أدراجنا على الفور لأنّنا كنّا نخاف من شيئين، حرص كبار القرية على زرعهما في نفوس كلّ أطفال القبيلة، الوحوش الضارية من أسود وفهود وابن آوى، وجنود الحامية الانكشارية، الذين كانوا يأتون كلّ صيف لمضارب القبائل لجمع الأموال، وتحصيل الحقوق المخزنية، فكان كثير منهم يتصرّف بفظاظة وعنجهية، فيأخذون كلّ ما يشتهونه، ويعاقبون العصاة الذين يرفضون أو يتلكّؤون في

دفع الأموال المطلوبة، فيطرحونهم أرضا، ويربطون أرجلهم إلى قضبان حديدية، ثمّ يضربونهم بلا رحمة بهراوات غليظة على الأقدام، حتّى تزرقّ ويصيبها التورّم. ولكنّهم لم يعودوا يأتون بعد الحرب على الإسبان، لأنّ أعيان قبيلتنا، والقبائل المجاورة اشتكوا للباي صالح ما تخلّفه هجمات الأسود والضواري على قطعانهم، فكانت تأخذ أضعاف ما يأخذه المخزن، وهذا لأنّهم كانوا غير مسلحّين بالشّكل الكافي لصدّ هجماتها الفاتكة، فأمر الباي بإعفاء تلك القبائل المتاخمة للجبال من دفع أيّ شيء للمخزن، والتصريح لها باقتناء السّلاح الذي كان ممنوعا على باقي القبائل خشية التمرّد، تشجيعا منه لتأمين سبل القوافل من خطر الأسود، تلك الأسود التي كانت تبثّ الرّعب في نفوس الجميع، وعلى الأخصّ الأسد الرّمادي الذي كان أهل القبيلة يلقّبونه بذي الرّأس الكبير، كان يتملّكني شغف طفوليّ هائل لمعرفة كلّ التّفاصيل عن ذلك الوحش المفترس الذي طالما كان ذكر اسمه فقط يفزع أشدّ الفرسان شجاعة. أذكر أنّي سمعت أخي أحمد بعد عودته من إحدى خرجاته للصّيد، وهو يحدّث أبي أنّهم رصدوه قرب عرينه الصّخري في جبل قريون، برأسه العظيم، الذي تغطّيه لبدة تنتهي عند أسفل كتفيه، وجسده القويّ الذي يفوق قوّة ثلاثين من أشدّ الرّجال. وفي مرّة أخرى ضبطني أحدهم مع مجموعة من الأطفال نردّد كلاما بذيئا

فراح يخوّفنا، بأنّ الأسد سيغضب منّا، وأنّه ربّما سيأتي حالا ليلتهمنا، وأخذ الرّجل يصفه لنا وصفا مريعا، قال إنّ عرض رأسه قدر ذراع، وإنّ طول جسمه الضّخم من أنفه حتى منبت ذيله نحو خمسة أذرع، فانخلعت حينها قلوبنا، وارتعدت فرائصنا لسماع ذلك، فكنت بعدها أجمع أولئك الأطفال وآخذهم لإحدى الأماكن التي نلعب فيها، فأرسم لهم هناك على الأرض، جسمه المرعب كما أتخيّله، ورأسه الضّخم، وخطمه الذي يخفي أنيابا قاطعة، وأطرافه التي تنتهي بمخالب قويّة وأمثّل بصوتي زئيره الهادر، وعندما أرى في وجوههم الفزع أطمئنهم أنّي حالما أكبر سأضع خطّة محكمة لقتله، ولكنّي كنت في قرارة نفسي مفزوعا أيضا، فلطالما كنت أسمعه في جوف ليالي الشّتاء الطّويلة والباردة، حينما كنّا نندسّ تحت أغطيتنا المغبرّة، وأفرشتنا المهترئة، فيبدو لي صوته الذي كان يأتي من مسافات بعيدة كقصف الرّعود، وأحيانا أخرى كان يشتدّ ذلك الصّوت عند اقتراب ذي الرّأس الكبير من منازل القبيلة فيخاتل الجميع، ويعدو على ما يجده في المتناول، ولا فرق عنده حينذاك بين أنواع البهائم، فيبقر بطونها، ويمزّق أحشاءها ليهدّئ سورة جوعه.

ومع بزوغ شمس الصّباح يحصي رجال القبيلة الخسائر التي تكبّدوها، ويتعقّبون آثار مخالب الأسد على الأرض، فيجدون أنّ

عدوّهم لم يكن لوحده، بل كان في رفقة أنثاه اللّبؤة، وربما أشباله الذين أصبحوا كبارا، وقادرين على الابتعاد عن العرائن الصّخرية في النّدوب والشّقوق الجبلية البعيدة.

كانت المهمّة التي يخرج من أجلها الرّجال في تلك السّاعة، هي تحديد مكان تلك العرائن، والاستعداد للهجوم عليها في ليلة مقمرة، كي يتسنى رؤية الأسد، ونصب الكمائن له، لا زلت أذكر كيف كان يأتي فرسان القبائل المجاورة، وقد أصابهم ما أصابنا فيجتمعون بفرسان (الجوامع)، ويضعون الخطّط والكمائن للإيقاع بتلك الأسود، ثمّ يخرجون إلى أطراف الغابة، بعد أن يأخذوا الطّعام معهم، لأنّهم لا يرجعون إلاّ في اليوم الموالي مع خيوط الصّباح الأولى، وكان أخي أحمد بارعا في وضع الخطط النّاجحة التي تؤتي ثمارها كلّ مرّة، ولكن غيرة بعض مقاتلي القبائل الأخرى، ومخالفتهم لأوامره كانت تعرّضهم أحيانا للخطر الكبير، ففي مرّة من المرّات كاد أحدهم أن يهلك، لمجرّد أن تقدّم قليلا عن المكان الذي حدّد له، ظنّا منه أنّ الأسد قد خرّ ميّتا ولكنّ الأخير كان حيّا، وارتدّ بمخالبه القاطعة من جديد ليمزّق بطن الرّجل، فأصاب فخذه، حتّى حزّ اللّحم عن العظم ولحسن حظّ المسكين، فقد صوّب أحد الفرسان ببندقيته رصاصة إلى الأسد أجهزت عليه، ونجا الرّجل بأعجوبة.

كان يوما أليما لعائلة ذاك الرّجل الذي رجع جريحا إلى أهله وسعيدا لأفراد القبيلة الذين استقبلوا فرسانهم المقاتلين، وهم يحملون الأسد، بعد أن قطّع إلى أشلاء، ثمّ حملت تلك الأشلاء على أخشاب إلى مضارب القبيلة، فتجمّع الرّجال والأطفال حولها، وتعالت زغاريد النّسوة بالحدث السّعيد. كانت تلك هي أيضا المرّة الأولى التي أرى فيها الأسد؛ جلده كان رماديا، ورأسه ضخما، تحيط به لبدة سوداء كثّة، كان البعض يبصق عليه والبعض الآخر يزعق، ويكيل له السّباب لكثرة ما التهم لهم من أنعام. وأمّا عن مصير تلك الأشلاء، فقد علمنا بعد ذلك أنّهم سيقومون بإرسالها إلى الباي، الذي سيبعثها بدوره هديّة للسّلطان العثماني في إسطنبول.

ورغم أنّ رغبتي كانت كبيرة في أن أصبح مقاتلا بارعا، وصيّادا ماهرا كأخي أحمد، إلّا أنّ ذلك الأخ الكبير، الذي كان بالنسبة لي ولأخي عبد الرّحمن الأب الثّاني، لمّا رآني أتممت حفظي للقرآن وأنا في العاشرة من عمري، آثر أن يأخذني إلى قسنطينة لمواصلة الدّراسة هناك في المدرسة الكتّانية، وهي إحدى المدارس التي أنشأها صالح باي، وكانت لا تقبل إلّا الطّلبة المتفوّقين الذين أتمّوا حفظهم للقرآن الكريم، وهكذا جرت المقادير، فقد أخذني أخي أحمد بنفسه إلى قسنطينة، وتركني في كفالة أحد قرابات عائلتنا، ويدعى الشيخ محفوظ، وهو ابن خالة أبي، كان يعيش

مع زوجته حليمة التي لم ينجب منها أطفالا، وكان له دكّان يعمل فيه حلّاقا وحجّاما، لقد عشت معهما ما يقرب من أربعة أعوام، كانت من أجمل أيّام حياتي، رغم صعوبة الدّراسة هناك، فقد كنت فيها بمثابة الابن الذي لم يرزقاه، وحتى أنا كنت أكنّ لهما حبّا عظيما، وخاصّة (أمّا حليمة) التي وجدت فيها حنان أمّي المفقود، فكنت أسعى في حاجتهما عندما لا تكون هناك دراسة، وكوّنت من حولي أصدقاء في حيّ الدبّاغين الذي كان يوجد فيه بيت عمّي محفوظ.

كان عمّي المحفوظ يأخذني بنفسه إلى المدرسة طيلة الأسابيع الأولى، وهي مدرسة مجاورة للمسجد الذي يحمل نفس الاسم (الكتّاني). كنّا نحفظ هناك المتون، التي يقوم المعلّمون بشرحها لنا لاحقا في الفقه والتّوحيد والنّحو والبلاغة، كما كنّا نحفظ المطوّلات من قصائد الشّعر العربي القديم. وتبدأ تلك الدّروس من مطلع الشّمس حتّى غروبها، وبسبب طول مدّة تلك الدّروس، كنت أشعر أنّها كانت مرهقة لي، وتبعث في نفسي إحساسا بالضّجر، برغم وجود يومين للرّاحة كلّ أسبوع، لذلك فإنّ الشّيء الوحيد الذي كنت أنتظره بشغف شديد، هي العطلة السّنوية التي كانت تمتدّ إلى ثلاثين يوما، فكنت أحسّ نفسي وقتها كالطّائر المسجون الذي آب إلى عشّه، وأفرد جناحيه من جديد في أرجاء السّماء الواسعة.

كانت عطل الصّيف تلك، تصادف مواسم الحصاد، فيبكّر رجال القبيلة إلى حقولهم الفسيحة، ويبقون هناك منكبّين بمناجلهم، تحت لهيب الشّمس الحارقة، يحصدون السّنابل الذّهبية إلى المساء، بينما تظلّ نسوة وعجائز الجوامع كعادتهنّ عاكفات لا يعرفن الكلل ولا الملل؛ من نقل الحطب للبيوت وتنظيف ساحاتها بمكانس الدّوم، إلى مخض الحليب، وجمع البيض من محاضن الدّجاج. فيما الأطفال والفتيان يرعون قطعان الماشية، فكنت ما إن أقضي يومين أو ثلاثة أيّام كضيف مبجّل على القبيلة، أنزع عنّي لباس الضّيف، وأمضي مع أخي عبد الرّحمان وابن أخي خالد، مثل حيوانات بريّة صغيرة نصول ونجول بقطعان مواشينا في المراعي الممتدّة، ليس على جلودنا إلّا الخرق البالية، نطارد العصافير بأقدام حافية، وننصب الفخاخ لها حتّى إذا أصابنا العطش ننبطح لشرب مياه البرك الآسنة التي ولغت فيها الكلاب والسّلاحف من دون أدنى تقزّز. كانت طفولة متوحّشة، لم تسلم منها حتّى الضّفادع المسكينة التي كنّا نبقر بطونها، ولا تلك القطط الهزيلة التي نقوم بخنقها على أغصان أشجار الصّنوبر، فتبقى هناك تترنّح لساعات طويلة قبل أن تلتهمها المفترسات باللّيل، فلا تبقي منها إلّا الجماجم شاهدة على فظاعة الموقف، كان هوس اللّعب يقودنا إلى أن نصل لحدود الوادي الكبير، فكنّا ننزل إليه للسّباحة، غير عابئين ببركه

العميقة، ولا بثعابينه الكبيرة، ولكنّ ذلك الاندفاع غير المحدود جعلنا نقترب في إحدى المرّات من حافّة الموت المحقّق، فلقد رأيت بأمّ عيني فهدين مبرقشين ينزلان العدوة الأخرى للوادي كانا يردان الماء برفقة صغارهما، ولولا الحاجز المائي الذي كان يفصل بيننا لكنّا لقما سائغة لهما ولصغارهما، يومها رأيت الفزع في عيني عبد الرّحمن وخالد، اللّذين كانا يرتجفان كعصفورين مبلّلين، وتولّينا هاربين لا نلوي على شيء، ولم نتوقّف عن الجري حتّى وصلنا إلى قطعان ماشيتنا، بعدما تقطّعت أنفاسنا، وخارت قوانا، ورغم كلّ ذلك كنّا مستمتعين بتلك اللّحظات التي لا تزال حيثياتها محفورة في الذّاكرة، وحينما أعود إلى طفولتي البعيدة، أتذكّر أيضا ليالي صيفية كنّا نتحلّق فيها، نحن الثّلاثة، حول أبي الحاج محمّد، فكنّا نستمتع بحلّ أحجياته الصّعبة، ونفغر أفواهنا لسماع مغامراته في الصّحراء ونزاله للإسبان، وتطوافه بعد ذلك بين الأقطار في أثناء رحلته الحجازية، كنّا مأخوذين بسرده الآسر، فنتمنّى أن تطول تلك اللّيالي، ولكنّها كانت تمضي سريعا ككلّ الأشياء الجميلة وأجدني بعد أيّام قليلة مضطرّا لمغادرة الجوامع، والرّجوع إلى دروس الكتّانية. لقد كان البقاء في القبيلة يغريني باستمرار ويجعلني أتحجّج بالمرض في مرّات كثيرة لأجل ألّا أعود فقط إلى قسنطينة التي أحببتها وأحببت أزقّتها ومساجدها، وكلّ شيء

فيها، إلّا قسوة النّظام الدّراسي الذي لم أتعوّد عليه. ولمّا كان التأخّر عن الالتحاق بالكتّانية أمرا غير مقبول، إلّا بعذر مقنع فقد اضطرّ القائمون عليها إلى فصلي من المدرسة قبل أن أنهي عامي الرّابع فيها.

شكّل ذلك الفصل عن الدّراسة خيبة كبيرة لأبي وأخي أحمد اللّذين كانا يأملان في أن أواصل الدّراسة، ولو تطلّب الأمر منهما إنفاق مزيد من المال لإرسالي إلى جامع الزّيتونة في تونس، وأصبح بعدها فقيها أو حتّى قاضيا، ولكنّي كنت في نفسي سعيدا لأرجع إلى حياتي البريّة، وأرعى أغنامي، وأتعلّم كلّ ما يتعلّمه الفرسان من فنون القتال، وأخرج كما يخرجون لصيد الأسود والفهود. ولكنّ ذلك الحلم ظلّ بعيدا عنّي، إذ كان أخي أحمد يعتبرني صغيرا لم يشتدّ عوده بعد لمواجهة الأخطار العظيمة، وكان يردّد أمامي كلّما تجرّأت على الحديث في الموضوع: (قلت لك: صيد الأسود ليس لعبا للأطفال)، لكنّه مع ذلك كان يحرص على تعليمي الرّماية بالبندقية، وشيئا فشيئا أصبحت ماهرا في التصويب، فلا تكاد رميتي تخطئ هدفها أبدا، حتى لقد أثار ذلك دهشة كبار الفرسان في قبيلتنا، الذين كانوا متأكّدين من أنّي سأصبح فارسا لا يشقّ له غبار بعد أعوام قليلة، وبعد أن اشتدّ عودي ببلوغي السادسة عشرة من عمري، كان لزاما على من في سنّي أن يتزوّج، وتكون له أسرته الخاصّة، وهذا ما فعله أخي

أحمد الذي كان هو ربّ العائلة، بعدما وهن أبي وأصبح متفرّغا لصلواته وأذكاره، فاختار لي ابنة سالم الشّاوي، وهي فتاة من قرية أمازيغية مجاورة، كان والدها صديقا لأخي أحمد، فقد قاتلا جنبا إلى جنب الإسبان، وتوطدّت تلك العلاقة بينهما، بعد أن كان سالم يأتي مع مقاتلي قريته للخروج مع فرسان الجوامع لمداهمة عرائن الوحوش البريّة. المهم أنّ زوجتي مريم حملت في ذلك العام على هودج محمول على ظهر جمل إلى قبيلة الجوامع، كانت صغيرة لم تبلغ بعد مبلغ النّساء، فكنّا صديقين أكثر من كوننا زوجين، ولكنّي بعد أن تزوّجت أصبحت على الأقل قادرا على الخروج إلى الصّيد، فلم أعد طفلا، فالأطفال لا يتزوّجون، وهذا ما حدث فعلا، ففي أوّل هجوم وقع على قرية سالم الشّاوي، جاء فارس منهم يخبرنا بما أحدثته تلك الوحوش من خسائر في اللّيلة السّابقة، فضرب موعد للاجتماع عند (الجوامع) في الغد، وكنت واحدا من أولئك الفرسان الذين حضروا ذلك الاجتماع، وبقدر ما كنت أشعر بالسّعادة للخروج مع المقاتلين، بقدر ما شعرت بالخوف، فحياة الإنسان في تلك المواقف، مثلما هي في الحروب، على قدر كبير من المخاطرة. اقتضت الخطّة أن يشارك في المداهمة عشرون مقاتلا، عشرة من قبيلتنا موزّعة على العوائل الثلاث، فكنت أنا، وأخي أحمد وابن أخي خالد عن آل الهلالي، ومن قبيلة سالم الشّاوي عشرة

آخرون. حمل الجميع حرابهم وسيوفهم وبنادقهم، وامتطوا صهوات خيولهم، بعد أن تزوّدوا بالطّعام الذي يكفي الجميع ليوم كامل في انتظار خروج ذي الرّأس الكبير من عرينه الحصين. أمّا أنا فقد تجهّزت جيّدا، ولبست برنسي، وأخذت معي غطاء صوفيا تحسّبا لقضاء ليلة طويلة من ليالي الشّتاء الباردة عند أطراف الغابة. لازلت أذكر يومها كيف كان وجه أبي متغضّنا تعلوه سحابة حزن عميق، سألته إن كان مريضا، أو قد أهمّه شيء، فأرسل بصره شاردا إلى ناحية جبل قريون الأجرد، والذي كان يشبه سرج حصان، ثمّ قال:

(إلى متى هذه المخاطرات؟ ما لكم ولتلك الأسود! إنّها لا تهجم إلّا على الدّواب والأنعام، واحتمال الخسارة في المال أهون من خسارة واحد منكم) حاولت جاهدا أن أهدّئ من روعه، وأؤكد له أنّنا أخذنا احتياطاتنا، ونحن مسلّحون بشكل جيّد، وفي كثرة من الفرسان، وأن لا حيلة لنا للحفاظ على أرزاقنا إلّا بقتل أو ترويع تلك الوحوش. كنت أعرف أنّ أبي كان خائفا، منذ تلك المرّة التي أصيب فيها الرّجل في رجله، ولكن ما لم أكن أعرفه أنّ أبي كان متوجّسا من شيء آخر سيطلعني عليه بعد عودتي، وإن لم يقصد أن يبوح به لأحد، وكان أمر الله مفعولا.

اتّفق الجميع على أن نقف عند طرف الغابة، ونترصّد خروج الأسد وأنثاه ما إن ينشر القمر نوره في الغابة، وقد كان

الوحشان يتّخذان عرينهما خارج الغابة بين الصّخور الجرداء عند سفح جبل قريون، جلس أخي عند اقترابنا من الغابة وجلسنا من حوله، ثمّ شرع يشرح لنا تفاصيل الخطّة، فعيّن خمسة من المقاتلين يبقون في الخلف لحماية ظهر البقيّة فيربطون خيولهم، ويتسلّق كلّ واحد منهم شجرة، ويبقى هناك حتّى إذا أحسّ بخطر ما يطلق من بندقيته رصاصة تنبّه باقي المقاتلين، الذين يقفون عند المقدّمة في ثلاثة خطوط، فأمّا خطّ المواجهة الأوّل في الجهة المقابلة لعرين الأسد، فهو متكوّن من قنّاصين اثنين، يتسلّقان شجرتين متقاربتين، وبينهما إلى الخلف قليلا، يحفر خندق، وتوضع بين جنباته جذوع خشبية قويّة تثبّت بأحجار ضخمة، بعد أن ينزل فيه ثلاثة فرسان، ويراعى في ذلك ترك فراغات بين تلك الجذوع، بمقدار خروج فوهات البنادق، وخلف هذين الخطّين مجموعة من عشرة مقاتلين يقفون على خطّ واحد، وفي حالة إذا ما سمعوا طلق تحذير من الخلف، يستدير خمسة منهم لمواجهة الخطر إذا كان متزامنا مع هجوم الأسد، ويبقى الآخرون في مواجهة ذي الرّأس الكبير. وكلّ ذلك التنظيم المحكم بحسب أخي أحمد، لنتفادى خطر إصابة بعضنا البعض برصاصات قاتلة، وحتّى لا نترك فرصة واحدة لنجاة الأسد بعد أن تحاصره رصاصات المقاتلين من كلّ الجهات.

حدّد قائد المعركة لكلّ واحد منّا المهمّة التي يجب أن يؤدّيها على أحسن وجه، وكانت مفاجأتي كبيرة عندما أمرني أن أكون واحدا من القنّاصين الاثنين، وهي مهمّة تتطلّب من صاحبها أن يكون ماهرا في التصويب. وألحّ عليّ، وعلى القنّاص الآخر، أن نحاول إصابة إحدى عيني أو أذني الأسد لأنّ في تلك المناطق الحسّاسة مقتله المحقّق، على أن يكون التّسديد من مسافة معيّنة، لأنّ الأسد سريع كالرّيح، وإذا حدث أن تجاوزنا قبل أن نصوّب عليه، فيجب أن نتوقّف فورا، لأنّنا قد نطلق النّار على من هم خلفنا. كنت أصغي لتفاصيل الخطّة المحكمة بانتباه وإعجاب شديدين. بعدها استعدّ الجميع في أماكنهم، وأخذت أنا مكاني بين أغصان سنديانة بلّوط ضخمة، وتقدّم أخي ببضع خطوات، وأخذ يصيح من بعيد لإثارة الأسد للخروج من عرينه وشرع الباقون في الصّياح، وإلقاء الحجارة على أمل حدوث المواجهة قبل حلول اللّيل، ودام الحال بعض الوقت حتى بدأنا نسمع زمجرة الأسد المدويّة، وظهر جسده المفزع ذو السّحنة الرّمادية المخيفة، وعضلاته القويّة، كان يمشي بطيئا، وبخيلاء أمام عرينه لا يلوي على شيء، وأخذ في التثاؤب والشخير، ثمّ بالزئير الفاتر، فزئير مدوّي جعل قلبي يطير فزعا، وعلى نحو مخاتل ومفاجئ هجم ناحية أخي، بسرعة البرق، كنت مستعدّا للمواجهة، منذ أن أطلّ الحيوان من عرينه، قلت في نفسي

لست أملك إلّا طلقة واحدة، لا مجال للخطأ فيها. جعلت ماسورة البندقية مصوبة في اتجاه رأس الوحش، حتى استدار أخيرا للهجوم، انحرفت قليلا باتجاه عينه اليسرى، وفي لحظة خاطفة، عند الاقتراب، ضغطت على الزّناد، فانفجر صوت الطّلقة، وطنّ دويّ الطّلقات في انفجار متزامن، وعلا دخانها الرماديّ الممتزج بنقع الغبار، وما إن تبدّدت قليلا تلك الغشاوة حتى رأيت الأسد قد خرّ على الأرض، تتناوشه الرّماح، لإزهاق آخر أنفاسه، ولمّا تأكّدنا من موته المحقّق، تفحّصنا جسده فوجدناه مصابا بعدّة طلقات، وكنت سعيدا، وأنا أرى أنّ عينه اليسرى التي وضعتها هدفا لرميتي كانت فعلا مطموسة، ومدمّاة باللّون الأحمر القاني. ورجعنا قبل مغيب شمس ذلك اليوم إلى منازلنا، محفودين بالزّغاريد، وتهاني النّجاة، واحتشد الجميع كالعادة لرؤية أشلاء ذي الرّأس الكبير. أمّا أنا فلم يكن يهمّني إلّا أبي الذي لم أره بين المستقبلين، فهرعت لخيمته، أزفّ إليه البشرى، فوجدته متهلّل الأسارير، قد أحاط بذلك علما، قلت له وقتها إنّنا مقاتلون أشدّاء يعتمد عليهم، وإنّ مخاوفه لم يكن لها داع، سكت قليلا، ثمّ بدا وكأنّه كان متردّدا في قول شيء ما فألححت عليه في السّؤال، فذكر لي أنّه قد رأى حلما أفزعه قبل خروجنا بليلة، قال: (رأيت شيئا عجيبا، فقد وجدتني أشخص ببصري إلى السّماء لأرى سحابة عظيمة، مقبلة من

ناحية الشّرق، كانت سوداء حتّى أظلمت لها الأرض، وإن هي إلّا لحظات قليلة حتى بدأت تمطر، ولكنّها كانت تمطر دما.. نعم كانت تمطر دما، ولم يبق بيت من بيوت هذه المضارب إلّا وأصابها شيء من ذلك الدّم، وكان مع تلك السّحابة ريح جعلت هذه المنازل قاعا صفصفا، ثمّ مضت تلك السّحابة إلى ناحية الغرب.. كان حلما مفزعا.. ثمّ سكت قليلا، وأردف: إنّها أضغاث أحلام، وما كان ينبغي لي أن أرويها)، تركت أبي في شروده الذي لم تبدّده كلماتي عن خطّتنا البارعة التي أوقعت بذي الرّأس الكبير، ومضيت لحجرتي لأروي لأهلي فصول ذلك النّصر المبين الذي حقّقته، بعدها تعدّدت خرجاتنا المظفّرة مرّات كثيرة فأمنت قطعاننا، وتضاءلت هجومات الأسود والفهود، وأصبح من النّادر أن تقترب من المناطق الآهلة، ولم نعد نحن كذلك نخرج لتعقّبها. خلال تلك المرحلة استطعت أن أحصل على زوج من الأشبال الصغيرة، التي داهمتها في أحد العرائن، بعدما تحيّنت خروج الأسد وأنثاه، كانت مخاطرة حقيقية، ولكنّها كانت ناجحة بمعونة بعض الأصدقاء. في الحقيقة كان الدّافع وراء ذلك أنّ عمر زوج أختي، وابن عمّي ذكر لي يوما أنّ أحد الفرنسيين الذين كان يعمل معهم منذ مدّة في سواحل القالة حيث كانوا يصطادون المرجان الأحمر، أبدى له رغبة في شراء زوج من صغار الأسود مقابل مبلغ كبير، ليبعث بهما إلى فرنسا

وأوصاه أن يرضعوهما من حليب الماعز، وألّا يعطوهما لحما وفي أثناء انتظاري بفارغ الصّبر عودة عمر من القالة لتتمّ الصّفقة الرّابحة، نجحت في وضع كمين في الطّريق التي كانت تسلكها بعض الغزلان الجميلة لتأوي لمكامنها، كانت تخرج نهارا وتسير في قطعان صغيرة، فترصّدتها أياما في الغابة، حتّى وقعت منها غزالتان جميلتان في الكمين الذي أتقنت صنعه، وهكذا أصبح لديّ زوجان من صغار الأسود، وغزالتان جميلتان صنعت لكليهما قفصين خشبيين، وجعلتهما في مكانين آمنين. ولأنّي كنت شديد الاعتناء بتلك الغنائم التي ظفرت بها، فقد حرصت على تقديم الطّعام والماء لها بنفسي، وأمنع أن يصل أيّ شيء من اللّحم إلى فمي الشّبلين على نحو خاص، لم يكن الاقتراب من تلك الأشبال أمرا سهلا دائما، فقد نشب الشّبل الذّكر يوما أحد مخالبه في وجهي، فحزّ نصف شبر منه، فهالني الدّم الكثير الذي نزفته، وتطلّب الأمر نحو ثلاثة أشهر لأتعافى من ذلك الجرح، الذي بقت منه ندبة شاهدة على تلك الهجمة المباغتة.

في تلك الظروف وضعت مريم مولودها الأوّل والأخير، كانت بنتا، أسميتها باسم أمّي (زينب)، ولكنّ فرحتي لم تدم إلّا ساعات قليلة، فقد توعّكت مريم توعّكا شديدا أعقب ولادتها وتدهورت حالتها بعد ذلك لتسلم الرّوح بعد يومين، فنكبت

نكبة شديدة، وألمّ بي حزن شديد، أمّا (زينب) فقد أصبحت منذ ذلك اليوم في عهدة زوجة عمّها أحمد، التي ولدت، قبل مريم، طفلا ذكرا بأسبوع واحد.

شهورا بعد ذلك، وفي ربيع العام 1787 شاءت إرادة الله الحكيم أن تمرّ قافلة تجّار، كانت قادمة من تونس، ومتوجّهة إلى معسكر، عاصمة بايلك الغرب في ذلك الحين، كان هؤلاء التجّار يحملون في رحالهم، شواشي تونسية وحياكا وثيابا مصنوعة من الحرير الأحمر، وطنافس محشوة بريش النّعام. توقّفوا عند مضارب قبيلتنا (الجوامع) ليتخفّفوا من وعثاء السّفر، وليريحوا دوابهم. فأكرم أخي أحمد نزلهم، وأقاموا في خيمتنا ليلة، علمنا خلالها أنّهم كانوا يحملون تلك البضائع للباي محمّد بن عثمان الكردي، وقد تفاجأ قائد تلك القافلة وكان يدعى قدّور بن عودة، عندما كان يصف لنا الباي محمّد وينوّه بشجاعته، وحسن أخلاقه، لحظة أن أخبره أخي أحمد أنّه التقى فعلا بذلك الرّجل، قبل أن يتولّى حكم باي الغرب، وهذا خلال معركة الحرّاش ضدّ الغزاة الإسبان، وقد شجّعني سماع تلك الموافقات العجيبة أن أعزم على السّفر إلى معسكر، وآخذ معي كلا القفصين إلى هناك، لأنّ عودة عمر من القالة تأخّرت كثيرا، فحدّثت نفسي أنّ سفري قد يكون فرصة مناسبة لأغيّر الأجواء، وأخرج من سجن أحزاني، وفكّرت أيضا أنّ الباي

سيعطيني مكافأة مجزية نظير ما سأعرضه عليه، لعلمي بأنّهم يقدّمون مثل تلك الهدايا للملوك والسّلاطين، فودّعت الأهل والأصحاب، وعرّجت قبل المسير مع القافلة على (زينب) فقبّلتها بحرارة، ووعدتها بأنّ فترة غيابي لن تطول كثيرا، وأنّي سأعود إليها بعد شهرين على أكثر تقدير، لم يكن عمرها في ذلك الحين إلّا بضعة أشهر، ولم تكن لتفهم ما أقول، بقدر ما لم أكن أنا أيضا أعرف أنّ غيابي سيدوم سنين طويلة، وأنّي يومها قد أخذت أخطر قرار غيّر حياتي للأبد..

.04.

في الصّباح، وبينما كان الضّيوف يستعدّون للرّحيل، قمت بحمل القفصين، على ظهري بغلين اثنين، وامتطيت صهوة جوادي، ومضيت مع القافلة التي كانت في حراسة مجموعة من الجنود، والفرسان، وبعد أيّام قليلة، أصبحنا قريبين من الجزائر المحروسة، وكان في نيّة قدّور بن عودة أن يتوقّف فيها قليلا لاقتناء بضائع أخرى أوصاه بها الباي محمّد بن عثمان، ولكن بتوقّفنا للرّاحة قرب برج حمزة علمنا بوصول الوباء الكبير إلى الجزائر عن طريق البحر، بعدما حمله معه رجل من برّ الترك وأنّه كان يخرج كلّ يوم إلى الجبانة من باب الوادي، خمسمائة جنازة، فأفزع الخبر الجميع، وسألنا الله العافية والمعافاة للمسلمين، وحثثنا السّير إلى الغرب، وفي الطّريق توطّدت علاقتي بقدور بن عودة، الذي كنت ألازمه، وأوصيه بأن يرتّب لي زيارة إلى قصر الباي محمّد الأكحل، فوعدني بأنّه حالما نصل إلى معسكر ويدخل على الباي سيكلّمه في شأني. لم تكن القافلة تتوقّف في سيرها إلّا قليلا لأخذ قسط من الرّاحة، أو لنصب خيمة للمبيت عندما يداهمنا اللّيل، ولكنّهم كانوا يتوقّفون أحيانا عند بعض تلك الأضرحة الموجودة على طول الطّريق فقد كان الجنود الأتراك، يتبرّكون بها، ويضعون هناك قطعا من

النّقود. ثمّ يمضون في مسيرهم، وبعد رحلة شاقّة دامت سبعة عشر يوما منذ تركنا قبيلة الجوامع، وصلنا إلى معسكر مع مغرب الشّمس، فنزلت تلك اللّيلة في بيت صديقي قدور بن عودة، الذي أكرمني غاية الكرم، وفي الصّباح عند دخوله إلى الباي محمّد، جاءني مسرورا، يزفّ إليّ البشرى بأنّ الباي ينتظرني في قصره، وأنّه قد تذكّر فعلا اسم أخي أحمد، الذي التقى به قبل أكثر من عشر سنوات قرب المحروسة، كانت تلك هي المرّة الأولى التي أدخل فيها إلى قصر حاكم من الحكّام فكيف إن كان هذا الحاكم، هو محمّد بن عثمان الكردي، الذي أخضع القبائل المتمرّدة، وسارت بذكر شجاعته الرّكبان. في البداية، وأنا أصل إلى قصر الباي، هالني منظر تلك الفخامة التي كانت تحيط بالقصر، حيث كان جنود الحامية، بألبستهم الملوّنة وأسلحتهم المنوّعة، يجوبون محيطه، وعند الباب الخشبي الضّخم، وقف جنود آخرون يحملون سناجق ودفوفا، ومن بين هؤلاء كان هناك فرسان عرب، تقدّم واحد منهم نحوي، وسألني من أكون، ثمّ تولّى إلى داخل القصر ليأخذ لي الإذن بالدّخول وبعد وقت قصير عاد يشير إلي بأن أتبعه، بعد أن أمر أحد الشوّاش أن يفتشني إن كنت أحمل معي سلاحا، وما إن دخلت بهو قاعة الباي الفسيحة، حتّى عرفته من خلال هيئته الجليلة كان جالسا على عرشه الفخم، وإلى يمينه جلس شيخ مسن، من

كبار ديوانه، كما أعلمني بعد ذلك قدّور بن عودة، كان الباي رجلا جسيما أسمر البشرة، يعتمر عمامة زرقاء ذات خيوط سوداء، ويضع برنسا أبيض خفيفا، تحته صدرية سوداء من القفطان، مزيّنة بخيوط فضية، ويلبس سروالا عربيا عريضا في وسطه حزام أخضر عريض، يشدّ يطغانا معقوفا، غمده ذو لون ذهبي متوهّج، وإلى نصفي ساقيه يرتفع خفّان بنّيان. نظراته كانت مركّزة ومباشرة تخترق قلب من ينظر إليه، فتملؤه مهابة وتعظيما. أشار إليّ بيمينه أن أقترب قليلا، وكما أنّه قد لاحظ ارتباكي، أتبع ذلك بابتسامة وادعة، لطّفت من وحشة المكان التي كنت أحسّ بها في داخلي، ثمّ قال: (أهلا بالهلالي)، فشكرته وذكرت له اسمي كاملا، ثمّ سألني عن أخي أحمد، وحدّثني أنّه لا يزال يتذكّر ذلك الشاب الذي جاء في جيش صالح باي من قسنطينة في العام الذي غزت فيه سفن الإسبان الجزائر وكيف أنّه كان قنّاصا بارعا ما أن يرفع بندقيته إلّا ويصيب بها جنديا إسبانيا، ثمّ قال الباي، وهو يوزّع نظراته بيني، وبين الشّيخ الوقور الذي كان إلى جانبه: (كان أسطول الإسبان ضخما يحمل الآلاف من المقاتلين، وقد نزلوا ليلا على السّواحل الشرقية للمحروسة، ثمّ زحفوا من هناك لدخول أسوارها ولكنّ الدّاي عثمان بن محمّد نصره الله، وأمدّ في عمره، كان قد أعدّ العدّة، وأحكم الخطّة بتوجيه المدافع إلى ساحة النّزال، وتسليح

الجند جيّدا، وأرسل إلى الإيّالات الثلاث، فالتأمت الجيوش كلّها في الحرّاش غير بعيد عن الأسوار الشّرقية للمحروسة. لقد كانت الأوامر واضحة، أن يحفر هناك خندق عظيم، لتتمترس وراءه تلك الجيوش أثناء تقدّم الأعداء إلى المدينة، فوقعت مذبحة عظيمة للإسبان، الذين وجدوا أنفسهم واقعين بين فكّي كمّاشة، فنصرنا الله عليهم نصرا مؤزّرا، وباء الكافرون بغضب من الله، وهزموا شرّ هزيمة.)

وهنا التفت الباي محمّد الأكحل إلى الشّيخ قائلا: (والآن ولكأنّي أنظر لذلك الفارس، الذي كان طويلا مثلما ترى أمامك هذا الشّاب، وهو يفعل الأعاجيب، ببندقيته عند التّصويب وبسيفه عند الاشتباك والالتحام مع الأعداء، ولكم أدعو الله اليوم أن يكون في جيشي فرسان بمثل شجاعة، وبأس أحمد الهلالي.) ثمّ صمت قليلا، وأردف قائلا:

. قل لي يا سليمان، لقد أبلغني قدور بن عودة أنّك جئت من سفوح جبل قريون تحمل إلينا بضاعة ثمينة. قال ذلك، وشفتاه كانتا تفترّان عن ابتسامة محبّبة.

قلت: أجل يا سيدي، زوج من الغزلان الجبلية، وشبلان من صغار الأسود خاطرت بنفسي كثيرا قبل أن أستحوذ عليهما من جوف العرين الصّخري الذي كان يؤويهما، وقد أخبرني إمام المسجد، أو القاضي لست أدري، وأنا في طريقي إليكم، أنّ تلك

الأشبال ممّا لا ينتفع به، فلا يجوز بيعهما فقها، أو الانتفاع بمالهما. فقلت له: إذن لم يبق لي إلّا الغزالتان، وأمّا الشبلان فسأهديهما لسيدي الباي محمّد. وأمري إلى الله.

وهنا ضحك الباي محمّد حتى بانت نواجذه. وقال:

. لا عليك يا سليمان... سوف لن أدعك ترجع خالي الوفاض بعدما تجشّمت كلّ هذا التّعب، ولأنّك أيضا شاب شجاع لا أشكّ لحظة أنّه سيكون فارسا كأخيه المجاهد أحمد. ثمّ أطرق بوجهه متفكّرا، وبلهجة من يحمل همّا عظيما أثقل كاهله واصل حديثه قائلا:

. في الحقيقة نحن في زمن الحرب، وعدوّنا الذي هزمناه مرّات ومرّات، لا يزال يدنّس أرضنا الطّاهرة، وهذه وهران لازالت تحت قبضة الإسبان لما يقرب من ثلاثة قرون، وحتّى فترة الفتح التي كانت على عهد الدّاي محمّد بكداش رحمه الله، لم تدم طويلا فقد عاد الإسبان بعدها من جديد، وقاموا بتحصين المدينة أكثر ممّا سبق. لذا وجب علينا أن نبقى متأهّبين، ومتيقّظين للّحظة التي سنفتكّ فيها مدينتنا من أيديهم، ونطهّر أرضنا منهم إلى الأبد. ومن يدري فقد تكون يومها واحدا من أولئك المجاهدين الذين سيحقّقون هذا الحلم الكبير. قال هذا، ثمّ نادى على خزنداره، الذي مثل بين يديه في الحال، فأمره بأن يصرف لي مئة سلطاني. فشكرت الباي، ودعوت الله له بحسن التأييد، ثمّ

أخذت أعطيتي، وخرجت من قصره مسرورا، لأجد صديقي الجديد قدّور بن عودة بانتظاري عند الباب، كنت أرغب في اكتشاف مدينة معسكر، وأزور أسواقها وحوانيتها، وأقتني أشياء آخذها معي هدايا عند العودة لأهلي، بدت لي المدينة صغيرة عن مدينة قسنطينة، ولكنّها كانت محصّنة بأسوار عالية، ومؤمّنة بشكل جيّد، فالحرس والجنود يجوبون المدينة في مجموعات صغيرة، والمحتسبون في الأسواق يراقبون الأسعار، ويدقّقون في المكاييل، ويقمعون الغشّاشين بيد من حديد، كانت أياما ممتعة قضيتها في ضيافة قدّور بن عودة، ولكن مع مرور الأيّام واستحالة السّفر إلى الشّرق، مع منع الباي محمّد الأكحل لقوافل التّجار من الدخول أو الخروج من المدينة خشية أن ينتشر فيها الوباء، عزمت على استئجار بيت لأسكن فيه، ورغم اعتراض صديقي قدّور، إلّا أنّي استطعت أن أقنعه بذلك فحجّتي أنّ مدّة البقاء في معسكر ربّما قد تطول كثيرا، وسأكون مضطرا لإيجاد عمل، ومأوى إلى أن ينكشف ذلك البلاء وبمساعدة قدّور استأجرت بيتا، قرب المسجد الكبير، ليتسنّى لي حضور صلوات الجماعة، وأن أكون قريبا من حلقات التعليم التي كانت تقام هناك. ولمّا كان معي ما يكفي من المال، لأفتح محلّا للتّجارة من خلال مبلغ تلك الأعطية المجزية التي أعطانيها الباي محمّد، فقد استأجر لي قدّور بن عودة دكّانا في السّوق

الكبير الذي يقع في وسط المدينة، وعرض عليّ أن يكون شريكا لي فيه، فاتّفقنا أن نعمل في صباغة الصّوف، وكانت تلك هي الحرفة التي بدأ بها قدّور حياته، فعلّمني أصول تلك الحرفة من كيفية خلط الألوان، ومدّة تجفيف لفافات الصّوف المصبوغة، إلى غاية وضع العلامات التي تنظم بضائع الزّبائن وضبط أوزانها. وهكذا لم تمض إلّا أسابيع قليلة حتّى أتقنت الحرفة إتقانا محكما، وقسّمت الوقت بيني وبين شريكي، فكنت أعمل صباحا، ويعمل هو مساء لأزاول دراستي في المسجد، لقد أصبحت ناضجا أكثر، لأدرك أن لا شيء في الحقيقة يعدل العلم، لقد عشت تجربة تعليمية صعبة في قسنطينة، مع بعدي عن الأهل في تلك السّن الصغيرة، وكثرة الدّروس المرهقة، ولكن ذلك لم يغيّر شيئا من حبّي لطلب العلم، ومطالعة الكتب، وهذا ما وجدته في خزانة المسجد، فكنت دودة كتب حقيقية تلتهم كلّ ما تجده أمامها، حتّى أنّ الباي محمّد لاحظ شغفي الشّديد بالقراءة من خلال زياراته الكثيرة لتلك المكتبة العامرة، وكنت كلّما التقيته هناك، يسألني عن أحوالي، ويشدّ على يدي للاستزادة من العلم، وقد أخبرني سيدي محمّد بن عبد الرّحمن الجلّالي عالم معسكر، أنّ الباي ذو علم غزير، وصاحب فصاحة وبيان، وقد درج على إكرام العلماء والفقهاء، وهو رجل محبّ للطبّ عامّة، والطبّ النّبوي خاصّة، فكان يحضّر خلطات من

الأعشاب بنفسه، ويعطيها للفقراء والزّمنى. كنت سعيدا بتلك الأوقات التي كنت أقضيها في مجالس العلم وبين رفوف المكتبة كما كنت سعيدا أيضا بشراكتي مع صديقي قدّور بن عودة التي كانت تدرّ علينا دخلا جيّدا، ولولا لوعة الغربة، وشوقي للأهل، وللقاء غاليتي (زينب) لما تردّدت في القول بأنّي كنت أسعد كائن في هذا العالم. وبعد نحو سبعة أشهر بدأت تتحسّن الأحوال، وأصبح بإمكان النّاس التنقّل بحريّة من وإلى المدينة كنت على وشك النّظر في مصير سفري، وتصفية حساباتي المالية مع شريكي، حتّى جاء في صباح يوم من أيام خريف تلك السّنة من يقرع باب بيتي، وعندما فتحت الباب، وجدت رسولا من قصر الحاكم، يخبرني أنّ الباي قد أرسل في طلبي، وأنّه يجب عليّ المثول بين يديه في الحال، حاولت أن أستفسر، وأقرأ ما في وجه الرّجل، ولكنّي لم أحصل على شيء، فتبلبل تفكيري وعصفت بي الشّكوك، والهواجس، إلى أن وصلت إلى قصر الباي، ففتح باب قاعة العرش، وإذا بالباي يذرع القاعة جيئة وذهابا، وقد أطرق برأسه، ووضع يديه وراء ظهره، كان في قاعة العرش رجل لم يسبق لي أن رأيته من قبل، وقد كنت خلال تلك المدّة التي قضيتها في معسكر عرفت كلّ حاشية الباي، وأعضاء ديوانه. توقّف الباي أخيرا، ورفع رأسه، ثمّ بادرني بكلام لا يزال محفورا في تلافيف مخّي:

. تعال يا سليمان!.. اقترب! تقدّمت خطوات، ومن نبرة صوت الباي تأكّدت أنّه لم يكن غاضبا، أو حانقا، فحمدت الله في نفسي. ثمّ أقبل الباي إليّ، ووضع إحدى يديه على كتفي، وقال:

. أتذكر ذلك اليوم الذي دخلت فيه عليّ، وحدّثتك عن حربنا مع الإسبان لاسترجاع وهران من بين أيديهم؟ قلت بلى يا سيدي، قال: يومها توسّمت في وجهك خيرا كثيرا، وراودني إحساس غامض بأنّك ستبقى معنا طويلا، وأنّه سيكتب لك حظّ في جهادنا ضدّ الإسبان، لأجل ذلك أنا لا أشكّ اليوم في قدرتك على مساعدتنا في ما نصبوا إليه جميعا.

قلت له إنّي طوع يمينه، وإن اقتضى الواجب منّي أن أفعل شيئا لنصرة ديني وأهلي، فلن أتردّد في سبيل ذلك لحظة واحدة. تهلّل وجه الباي لسماع ذلك الجواب، وأخبرني بتفاصيل المهمّة التي سوف يكلّفني بعملها، قال إنّ إحدى صور حربنا مع الإسبان، هي جمع كلّ التّفاصيل عنهم، وعن أسوارهم وحصونهم، والبحث عن نقاط ضعفهم، وهذه المهمّة تتطلّب دقّة في الملاحظة، فكلّ تفصيل قد يكون لنا عونا في حصارنا الذي نقوم به كلّ سنة حول المدينة، وأكّد لي أنّنا مثلما نزرع نحن عيوننا داخل أسوارهم، وفي المحيط الذي يتحرّكون فيه فإنّهم يفعلون الشيء نفسه. وأنّه طيلة السّنين الماضية عمل على الاستعانة بمجموعة من الجواسيس، وخاصّة من بين

أولئك (المغاطيس) وهم من قبائل بني عامر، الذين باع أغلبهم دينهم وعرضهم، ومكّنوا للعدوّ الذي عاشوا أذلّاء تحت سلطانه ولطالما كانوا شوكة في خاصرة المجاهدين، ثمّ رفع يده اتّجاه الرّجل الذي كان يقف إلى جانبه، ويرتدي لباسا عربيا، ووجهه أمرد إلّا من لحية صغيرة في ذقنه، وقال:

. وهذا يوسف بن الأحول واحد من أولئك المخلصين الذين يعملون لقضيتنا السّامية، قد رفض أن يمالئ الأعداء على بني جلدته، وهو يجتهد منذ مدّة لاستغلال وجوده بين الأعداء حتّى يأتي لنا بما نحتاجه من المعلومات الحربية، وقد طلب منه الحاكم الإسباني للمدينة منذ وقت قريب، أن يأتيه ببعض الحيوانات البريّة، لاسيما المتوحّشة منها، ففكّرت بأنّ سفرك محمّلا بذينك الشّبلين مع ابن الأحول في هذا الوقت سيكون مفيدا لنا من عدّة جوانب، فهو قد يجعل الحاكم مطمئنا عندما يرى واحدا من صيّادي الأسود يعرض بنفسه هذه البضاعة أمامه، لعلمه أنّ هذه الوحوش لا يملكها إلّا الحكّام والبايات، فلابدّ عليه وقتها أن يستوثق من مصدرها، وأن لا يكون في الأمر ما يريب، وسوف لن يكون هناك من هو أفضل منك للقيام بذلك، وسنستغلّ وجودك هناك أيضا، فربّما قد يقع نظرك على أشياء لم يلاحظها غيرك، وتكون ذات فائدة عند خروجنا الوشيك لمحاصرة المدينة، فالنّاس متفاوتون في

قدراتهم، ودرجة ذكائهم، وحفظهم للتّفاصيل التي تقع عليها أعينهم. وإنّي أوصيكما، إذا خرجتما من معسكر أن تخرجا ليلا وأن تخفيا القفص في هودج جيّدا، وتكتما صوت الأسدين إلى حين الابتعاد عن معسكر، فقد يكون هنا جواسيس يعملون للإسبان لا نعلم حقيقتهم، لقد كنت أرى بنفسي وجوههم المريبة بين الجموع، وبعد قليل من التّعذيب يقرّون بأنّهم جواسيس للإسبان، لقد أصبح الشّبلان كبيرين، وبترك الغزالتين هنا سنبعد كلّ احتمال بأن يتعرّف عليكما أحد من الجواسيس الذين يرصدون كلّ شاردة وواردة في المدينة، وتوجّه الباي إلى يوسف بن الأحول موصيا:

. يبقى أن أوصيك بأنّ لقاءكما كان في جبل قريون في الشّرق عندما عرضت على سليمان أن يرافقك إلى وهران، ليبيع هذين الأسدين للحاكم الإسباني مقابل أعطية مجزية.

وعند الخروج من قصر الباي، توجّهت رأسا إلى صديقي قدّور بن عودة، الذي وجدتّه كالعادة في الدكّان، وحدّثته برغبتي في السّفر من أجل مهمّة كلّفني بها الباي، على أن لا يخبر بذلك أحدا مهما كانت هويّته، وفي ليلة خريفية باردة، غادرت بيتي بعد منتصف اللّيل، لألتقي يوسف بن الأحول في المكان المحدّد وكان قرب أحد المخازن، فوجدته فوق جواده بانتظاري، ومعه ناقة في هودجها قفص الأسدين، وكان هناك خادم يمسك بزمام

فرس، وفي يده الأخرى بندقية قدّمها لي، فأخذت البندقية وامتطيت صهوة الفرس، وبعد بعض الوقت كنّا خارج المدينة قد سلكنا الطّريق إلى وهران، كانت السّبل آمنة، فقد ردع الباي محمّد بن عثمان قطّاع الطّرق، ولكنّ هذا لم يكن يعني أن لا يأخذ المرء احتياطاته، فكلّ شيء وارد حسب ما قاله لي ابن الأحول، وبعد مسيرة يومين، وفي صباح غائم، كنّا أخيرا عند أسوار وهران بعدما عبرنا سيق، ووادي تليلات، فاعترتني الدّهشة، ممّا كنت أراه من أسوارها العالية، التي كانت تتجاوز العشرة أمتار. وتعلوها أبراج مراقبة على ارتفاع هائل، وبين كلّ برجي مراقبة مسافة لا تتجاوز المئة متر، وهنا نزل ابن الأحول عن جواده ليكشف عن ما في داخل القفص، كي لا يرتاب في أمرنا الحرّاس الإسبان، وما إن اقتربنا من تلك الأسوار حتى ظهر أمامنا خندق عظيم يحيط بتلك الأسوار الشّاهقة من كلّ جانب، وهنا أشار إليّ ابن الأحول بالتوقّف، وكنت مذهولا ومأخوذا ممّا أرى، فقد كان عرض الخندق نحو عشرة أمتار وعمقه لا يقلّ عن سبعة أمتار تنتهي بأخشاب مدبّبة، فتخيّلت مصير من يسقط في تلك الهاوية، من إنسان أو دابّة، فلم يخامرني شكّ ساعتها بأنّه سيتمزّق أشلاء، ويموت شرّ ميتة كنت على وشك أن أسأل ابن الأحول، كم من الوقت والجهد تطلّب إنجاز تلك التحصينات الرّهيبة، حتّى أشار إليّ بالسّكوت

لأنّ صوتا ما تناهى إلى أسماعنا من أعلى البرج الذي وقفنا بدوابنا أمامه، لم أكن أميّز مصدر ذلك الصّوت على وجه الدّقة بادئ الأمر، ولكن سرعان ما ظهر رأس جندي من نافذة ذلك البرج، كان مدرّعا بالحديد، وبدأ يتناوب الحديث برطانة الأعاجم مع ابن الأحول، وبعدها اختفى الجنديّ، ثمّ بدأ صرير نزول بوابة حديدية عظيمة لم أر في حياتي مثلها، كانت تشدّها سلاسل قوية، وواصلت نزولها ببطء حتى استوت على جانبي الخندق، جسرا متحرّكا، فتقدّم ابن الأحول، وتقدّمت معه أنا بفرسي أيضا، وورائي النّاقة التي كان خطامها في يدي. وعند مدخل الباب وقف مجموعة من الجنود، الذين كانوا كلّهم مدرّعين بالحديد، ويحملون بنادق طويلة وسيوفا، فأشاروا إلينا بالترجّل، وتسليم السّلاح، ثمّ سرنا مترجّلين إلى المدينة وراء جنديين امتطيا جوادينا، وبقي خطام النّاقة التي كانت تحمل الأسدين في يدي.

كانت الطريق التي مشينا فيها محفوفة بأشجار الصّنوبر السّامقة، ومرصوفة بالحجارة بمهارة فائقة، لازلت أذكر طرطقة حدوات الأحصنة على ذلك الرّصيف، حينها بدأت السّماء تمطر برذاذ خفيف، فكنت أشمّ رائحة التّراب تعبق برائحة محبّبة وأنظر لعيون الرجال والنّساء والأطفال الذين قادهم الفضول لمشاهدة منظر الأسدين الجميلين اللّذين كانا على ظهر النّاقة

وبقدر ما كانت أعينهم منبهرة بمنظر الأسدين، كنت أنا مفتونا بجمال المدينة، التي كانت كلّها مفروشة بحجارة صغيرة وعمائرها مرتفعة؛ فكان بعضها مكوّنا من طابق واحد، والبعض الآخر من طابقين، فيما كانت هناك بيوت مشيّدة من الخشب ذات منظر جذّاب، وما إن وصلنا إلى وسط المدينة، وكانت ساحة واسعة تحيط بها البنايات العظيمة من كلّ مكان، حتّى بدأ ابن الأحول يصف لي طبيعة المباني من حولنا، فأشار إلى الكنيسة بصلبانها وتمثال السيّدة مريم المنتصب عند مدخل ساحتها، وباقي البنايات الأخرى كالمستشفيات والحوانيت، وأفران الخبز، وقصر الحاكم، الذي كان الجنديان يقوداننا اتّجاهه. فكان أكبر البنايات في المدينة كلّها، ومن بعيد كانت ترفرف فوقه الرّاية الإسبانية، بأشرطتها الثلاثة، شريطان أحمران في الطرفين، بينهما شريط ذهبي عريض صوّر فيه تاج، وقلعة وأسد.

تركنا النّاقة في عهدة الحرّاس، وصعدنا السّلالم الحجرية المؤدّية إلى مدخل القصر، الذي كانت تحرسه مجموعتان من الجنود، حيث وقفت كلّ مجموعة على جانب من الباب. كانوا يحملون بنادقهم الطّويلة أمامهم في هيئة واحدة، فسرنا بين المجموعتين عدّة خطوات، حتى كنّا أمام جثّة جندي ضخم مدرّع بالحديد، أمرنا بالتّوقّف، ثمّ قام هو الآخر بتفتيشنا جيّدا

ولمّا لم يجد شيئا، أشار إلى كلينا باتّباعه، فقادنا إلى بهو فسيح مفروش بالمرمر الأبيض، بين جنباته حجرات كثيرة، ولكنّه أشار إلينا بأن نصعد معه سلالم أخرى تفضي إلى الأجنحة العلوية هناك وجدنا حارسين مسلّحين يقفان أمام أحد الأبواب، كانت تلك هي حجرة الحاكم العام للمدينة الدّون نيكولا غارسيا (Don Nicolas Garcia) الذي مثلنا بين يديه. كنت أعتقد أنّه يجلس على عرش فخم، ويحيط به حشم كثير، وإذ هو رجل كبير السّن، يجلس وراء منضدة عالية، يلمع خشبها المصبوغ بلون أسود، وفوق تلك المنضدة، محبرة وريشة، ورزمة من الأوراق كان الحاكم العجوز حليق الوجه، له شارب رفيع، ويعتمر قبّعة سوداء مدوّرة في وسطها ريشة، ويضع على كتفيه رداء أحمر رسم على جانبيه صليبان ذهبيان. وما إن رآنا ندخل إلى حجرته حتى قام من مكانه، فبدا لي هزيلا، وزاد في هزاله سرواله الأبيض الذي كان ملتصقا بجلده، سادت لحظات من الصّمت الغريب، فكنّا نسمع وقع عقب حذاء الحاكم على البلاط المرمري، إلى أن وقف أمام ابن الأحول، وشمخ بوجهه يحدّق في عينيه، وهنا لاحت منّي نظرة جانبية إلى وجه الحاكم بنتوءاته العظمية، وجفني عينيه المتهدّلين، كان منظره لا يبعث على الرّاحة مطلقا، تبادل مع ابن الأحول بضع كلمات، ومن نظراته المتعالية إلي، فهمت أنّه كان يتكلّم في شأني، ثمّ مضى إلى إحدى

النّوافذ، فأزاح السّتار، وألقى بنظره إلى أسفل الشّارع استنتجت أنّه كان ينظر إلى الأسدين، ومن دون أن يحوّل نظره إلينا، واصل حديثه مع ابن الأحول من ذلك المكان، ثمّ بدا وكأنّ كلام الحاكم انقلب فجأة إلى نبرة حادّة، فتغيّر وجه ابن الأحول واحمرّت عيناه، وبدأت أحس بصوته المرتجف، فأدركت أنّ لقاءنا بالحاكم لم يكن ودّيا أبدا، هذا الأخير بدأ يوبّخ ابن الأحول، ويصرخ في وجهه، ثمّ تولى إلى جرس كان فوق منضدته فقرعه، ليدخل بعدها الجنديّ الضّخم، وهو ممسك بيد رجل شبه عريان، كان مكبّلا بالسّلاسل، ويرسف في أغلاله الثّقيلة فدفعه الجندي إلى الأمام حتّى كاد أن يقع على الأرض. وهنا انتهره الحاكم، فشرع في الكلام، الذي بدا لي كتوسّلات وسرعان ما تحوّل الكلام لسجال بين ابن الأحول، وذلك الرّجل فعلمت حينها أنّ ابن الأحول قد اكتشف أمره، وأنّ هناك من كان متورّطا معه، وهذا ما سيؤكّده لي لاحقا، صديقي خوسيه الذي سيقاسمني نفس الزّنزانة أيّاما بعد تلك الواقعة. أمر الحاكم جنوده بالقبض على ابن الأحول، ثمّ أمرهم بعد ذلك بتقييدي أنا الآخر، وفي لحظة خاطفة، طرح على رأسي كيس أغشى بصري، وقيّدت يداي، ولم أعرف بعدها أين كان يقودني الجنود، فسرت مكتوف اليدين، لا أرى شيئا. كنت أسير جارّا قيودي في طرق متعرّجة، ولا أسمع إلّا همهمات، ووقع أحذية

وصرير أبواب تفتح وتغلق، إلى أن وصلت إلى مكان بارد، ترتدّ في أرجائه أصوات المتكلّمين، فأيقنت في نفسي أنّ حبلا غليظا سيلتفّ بعد قليل حول رقبتي، وستكون بعدها النّهاية، فردّدت الشّهادتين، وإذا بإحدى الأيدي تنزع عنّي تلك الغشاوة، فوجدّتني في بهو مظلم، واقتادني السجّان إلى القبر الذي سأدفن فيه بضع سنين، وكان أمر الله مفعولا.

.05.

كانت الزّنزانة التي رميت فيها، باردة ومظلمة، وبعد بعض الوقت بدأت تظهر جدرانها من خلال ضوء خفيف كان يدخل من فتحة صغيرة بأعلى الباب، كانت تلك الحيطان متآكلة ومقشّرة، تملأ الطّحالب شقوقها. جاء السجّان بعدها ورمى لي بغطاء وفراش مهترئين وقذرين، ثمّ أعاد غلق الباب. كان ذلك اليوم من أتعس أيّام حياتي، ولولا عون الله، الذي أمدّني بالقوّة لمواجهة تلك المحنة القاسية، لأصبت حينها بالجنون من أهوال ذلك السّجن الرّهيب، لم أستطع النّوم في تلك اللّيلة الأولى من سجني، ولا حتّى الأكل من ذلك الإناء الصدئ والمقرف، الذي كان يأتيني به السجّان في الغداء والعشاء، وليس فيه إلّا حساء بارد، ومعه قطعة من الخبز اليابس والخشن، كنت محبطا، وقد اعتراني حزن شديد، فلم أفكّر يومها إلّا في شيء واحد، أن يعجّل الله بموتي، فلم يكن هناك أصعب من تحمّل فكرة العيش في زنزانة، لا أعلم إلى متى سأمكث فيها. فأصبح حلم الموت بالنسبة لي خلاصا من جحيم الغربة عن الأهل، وعذابات الوحدة الخانقة التي كنت أحسّ بها في السّجن. كانت عيناي تحملقان في ظلمة اللّيل، وقلبي هواء إلّا من ذكريات وجه ابنتي زينب وباقي الأحبّة، حينها كنت لا أستطيع أن أحبس دموعي، التي لم

تستطع إطفاء جذوة وحرقة الشّوق في قلبي. لم يكن لي أنيس هناك إلّا الذّكر وقراءة القرآن، ووجدت عزائي في صلواتي وتضرّعاتي لربّي، وهكذا استسلمت لقضاء الله وقدره، وبدأت نفسي تهدأ شيئا فشيئا.

في صباح اليوم الثاني دخل السجّان إلى زنزانتي، واقتادني خارجها، حيث وجدت سجناء آخرين يخرجهم الحرّاس من زنزاناتهم التي كانت تمتدّ في صفّين طويلين يفصل بينهما رواق ينتهي إلى بوابة مصنوعة من قضبان حديدية هي المصدر الوحيد الذي كان يتسرّب منه الضوء إلى زنزانات السّجن، وعبر تلك البوابة وجدنا أنفسنا في ساحة مربّعة، تركنا الحرّاس نمشي خلالها. وهنا لاحظت أنّ نزلاء آخرين كانوا يخرجون من بوابة مجاورة لتلك التي خرجنا منها، فعرفت أنّ تلك البناية القديمة كانت مقسومة إلى جناحين، كلّ جناح يضم صفّين ممتدّين من الزنزانات، وهو ما يفسّر عدد السّجناء الكبير الذي قدّرت أنّه قد يتجاوز المئة بكثير. وكانت هذه البناية تقع في وسط سور يحيط بها من الجهات الأربعة، وعلى ذلك السّور بنيت ستة من الأبراج للمراقبة، ثلاثة من كلّ جانب، ولم يكن يسمح لنا بالتحرّك إلّا في حدود المربّع الذي يقع بين البوابتين، وبرجي المراقبة الأماميين، فيما سدّ الحرّاس جانبي البناية المحاذيين للسّور

الذي كان هو الآخر قديما، به عدّة شقوق تسكنها السّحالي وتنمو فيها الأعشاب والطّحالب.

لقد شدّ انتباهي منظر السّجناء بوجوههم الكالحة المكدودة وشعورهم الشّعثاء، كانت ألبستهم خرقا رثّة، تتحرّك فيها أكداسهم العظمية، التي أنهكتها الأمراض والأحزان، فبدت أجسامهم الهزيلة كحطام بشري يمشي على أرجل واهنة. مرّ أمامي شيخ قد بلغ من العمر عتيّا، فرأيتني في صورته، بنفس سحنة وجهه المتغضن، وجلدة يديه المجعّدتين كجلد سلحفاة بعد أن يكون قد مرّ عليّ في ذلك السّجن الملعون ستّون أو سبعون سنة، كدت حينها أن أقع مغشيّا عليّ، فاستعذت بالله من الشّيطان الرّجيم، وسألته الثّبات والصّبر الجميل.

كان منظر قمّة جبل مرجاجو فوق سور السّجن، هو الشّيء الوحيد الذي أشعرني أنّي لا زلت حيّا، فرحت أملّي ناظري في خضرة أشجاره، وشموخ هامته، لولا منظر ذلك الحصن الذي كان ينتصب فوق أعلى نقطة منه، فقد عكّرت صورته مزاجي وجعلتني لحظتها أشعر أنّي محاصر من كلّ الجهات، كان الإسبان يطلقون على ذلك الحصن اسم (سانتا كروز)، وقد حدّثني ابن الأحول في طريقنا إلى وهران أنّ أعداءنا كانوا يتخذونه لمراقبة المدينة، ورصد كلّ شيء مشبوه يتحرّك خارج أسوارها المنيعة كان أشبه ما يكون بالجحر الذي تلتفّ فيه أفعى ملعونة، فلا

يحاول أحد الاقتراب منها، إلّا ولسعته بسموم مدافعها القويّة فلا يملك بعدها إلّا أن يتولّى هاربا، ويبوء بالفشل الذّريع.

وبعد نحو ساعة من المشي في ساحة السّجن، نادى الحرّاس من فوق أبراج المراقبة بانتهاء مدّة الاستراحة، كانت أصواتهم المزعجة تزعق من أبواق نحاسية كبيرة، فيهرع باقي الحرّاس في الأسفل لسوق السّجناء إلى قبورهم المظلمة في انتظار فسحة نور أخرى في اليوم القادم. وهكذا أوصدت الأبواب علينا بالأقفال الثّقال، وجلست في زنزانتي التي لم يكن لي فيها إلّا تذكّر صور من عالم لم يكن إلّا كحلم جميل تبدّد في لحظة لم تكن يوما في الحسبان، وأكثر شيء قهر نفسي، وجرّعني مرارة لا توصف، هو الشّعور بحسرتين متلازمتين، كلّ واحدة منهما أبشع من الأخرى؛ أمّا الحسرة الأولى، فهي تفريطي في كلّ لحظة جميلة كنت فيها قريبا ممّن أحب: أبي الحاج محمّد، ابنتي زينب إخوتي، أهل قبيلتي. وأمّا الحسرة الثانية، فهي أنّي كنت غير قادر على استدراك ذلك التّفريط، كذلك الطّائر الذي قصّ جناحاه ووضع في قفصه المشؤوم لا يستطيع منه فكاكا، وما دمت قد ذكرت الأقفاص، فلا أدري كيف تذكّرت كثيرا، في أيّام سجني تلك الحيوانات التي قمت بسجنها مدّة طويلة داخل أقفاص موحشة، بعدما قمت بانتزاعها من أوطانها، ففجعتها وآلمتها وأذقتها مرارة الأسر والغربة، ولم أحسّ بقلبي القاسي وقتها، بما

كانت تحسّ به، حتّى تجرّعت من نفس تلك الكأس التي أذقتها منها... حياة السّجن صعبة، وأصعب ما فيها إحساسك الدّائم بالعجز، وبقاؤك نهبا لأسوأ الاحتمالات، لم يكن من السّهل تجاوز ذلك، وفتح فرجة للأمل بين تلك الجدران الصّماء والقاسية، وإنّي لأدين بالفضل لله ربّ العالمين، الذي لولا سابغ رحمته، لكنت من الهالكين، إنّها أعظم غنيمة غنمتها في سجني فقد أحسست أنّي قريب إلى الله من أيّ وقت مضى، قادر على الثّبات في أسوأ الظّروف، غير يائس من فرج قريب، كنت رغم كلّ شيء أقول في نفسي (ومن يدري؟ فلعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا، وقد أصبح يوما على صهيل خيول الفاتحين يدخلون المدينة، ويفتحون هذه الأبواب التي حالت بيني وبين حريّتي). لقد عشت أتطلّع إلى ذلك اليوم طوال المدّة التي قضيتها في السّجن فكان الرّجاء بالفتح القريب يغذي أيام سجني كلّها بالأمل المتجدّد رغم ما كنت أعانيه من عذابات تنوء بحملها الجبال الرّواسي.

في سجن وهران، وما عدا أوقات الاستراحة التي كنّا نخرج فيها للسّاحة، لم أكن أسمع أصوات السّجناء إلّا نادرا، وكأنّ الجميع كانوا منهكين يلوكون ذكرياتهم في صمت القبور، ولكنّي مع ذلك، كنت أسمع صراخ أحدهم من زنزانة قريبة إلى زنزانتي كان صوته الهائج في أثناء تلك النّوبات اليومية يكاد يصمّ أذنيّ

فيظلّ صراخه المتقطّع يتردّد بين جدران الزّنزانة طيلة ساعة من الزّمن قبل أن يخيّم الصّمت المطبق من جديد، وفي السّجن أيضا كان هناك نزلاء غير محبّبين، فقد كان السّجن قذرا وممتلئا بالجرذان، التي كنت أرى بعضها يتسلّل من فرجة ضئيلة في أسفل باب زنزانتي، بأصواتها المزعجة، وأشكالها المقزّزة التي كنت أشعر معها بالغثيان، وكثيرا ما كنت أقوم من مكاني مستنفرا لمطاردتها، وسحقها بنعلي، ولكنها كانت سريعة فتنجو بجلدها، وأبقى أنا مترصّدا دخولها مرّة أخرى للإجهاز عليها. المشكلة أنّه لم يكن لديّ ما أسدّ به تلك الفرجة في اللّيل خاصّة، فكنت أستسلم للنّوم، رغم ما كنت أعرفه عن عضاتها الخبيثة، من أيّام المدرسة الكتّانية بقسنطينة، عندما كان يحدّثني الطّلبة الذين كانوا يقيمون داخل المدرسة عن عضات الجرذان، التي كانت تتسلّل من مخازن المؤن باللّيل، وتشنّ عليهم هجماتها المباغتة. لم يكن أمامي من حلّ إلّا أن أتقبّل واقعي الجديد كما هو، وفي تلك الظروف، وبعد مرور أسبوع عن سجني، حلّ في الزّنزانة التي كنت فيها سجين آخر، وهو رجل أربعيني، يبدو من مظهره، وحسن سمته، أنّه كان صاحب مكانة رفيعة في قومه. كان معتدل الطّول، ذا شعر أسود ناعم ينسدل فوق كتفيه الواسعين، ووجه مدوّر وحليق إلّا من شارب رفيع وتحت شفته السّفلى عنفقة تمتدّ شعرات منها إلى آخر نقطة

من ذقنه، كان ذلك الرّجل، هو (خوسيه) الذي ستجمعني به صداقة متينة بكلّ ما فيها من مواقف، وذكريات لا تنسى بحلوها ومرّها. أذكر كيف كان اليوم الأوّل لدخوله السّجن، فقد انتحى إلى ركن من أركان الزنزانة، وظلّ قابعا في أحزانه، يلوذ بصمت عميق، فلم أسمعه ينبس ببنت شفة طيلة ذلك اليوم. كنت أحسّ بما كان يشعر به، وأرغب في أن أؤنس وحدته، وأحدّثه بما عشته في أيّام سجني الأولى، ولكنّي لم أكن أعرف لغته، ولا أيّ نوع من النّاس كان ذلك الرّجل، ومع ذلك كنت سعيدا أن يتقاسم معي إنسان نفس الزّنزانة، فوجود شخص آخر في نفس ذلك القبر، كان فيه عزاء لي، وتخفيف من كلّ تلك الآلام التي كنت أعيشها.

وكان من سوء حظّ نزيل السّجن الجديد، أن عضّه جرذ من تلك الجرذان في اللّيلة الثانية من سجنه، وما إن سمعت صيحة الألم التي أطلقها، حتى قمت من نومي فزعا، فرأيت جسم الجرذ الضّخم منطلقا كالسّهم إلى فرجة الباب، لم يكن هناك إلّا ضوء خافت يدخل من أسفل الباب، وفتحة في أعلاه بسعة راحة اليد، حيث يدخل ضوء قناديل زيتية كانت معلّقة في رواق الجناح الذي كنّا فيه. نهضت من مكاني، وحاولت أن أستفهم منه ما جرى، ولمّا لم أكن أعرف اللّغة الإسبانية، فقد شرعت في التّواصل معه بإشارات من يدي، وكم كانت مفاجأتي، عندما

سمعت الرّجل يتكّلم العربية بشكل جيّد، وأخبرني أنّ جرذا قد عضّه في ساقه اليمنى، وكشف لي عن موضع العضّة، فقلت له يجب إحداث جرح في ذلك المكان ليخرج شيء من الدّم، وبين شقوق الحجارة التي رصفت بها أرضية الزّنزانة، وجدت شظيّة حجريّة، أحدثت بها جرحا صغيرا في ساقه، وبدأت أضغط ليسيل الدّم المصاب بتلك العضّة المسمومة، ثمّ بحثت عن خرقة لأعصب بها ذلك الجرح، فلم أجد وقتها شيئا نظيفا حينها أخرج خوسيه منديلا من جيب سرواله، وربطنا على ذلك الجرح، قلت له في أثناء ذلك: (الآن قد تجنّبنا ما هو أسوأ)، بعد ذلك قمت بتمزيق جزء من فراشي، وسددت به الفرجة التي كانت أسفل الباب، ورجعت إلى مكاني، ونمت إلى الصّباح، حيث وجدت السّجين الجديد جالسا في مكانه، وقد طبعت ابتسامة لطيفة وجهه، عندما رآني أصحو من نومي، فقام من مكانه وجلس إلى جانبي يشكرني على ما بدر منّي من مشاعر صادقة وسألني بفضول إن كنت أعرف شيئا عن الطّب، فأخبرته أنّ ذلك التدبير ممّا سمعته من أفواه الطّلبة الذين كانوا يدرسون معي في قسنطينة، فكانوا إذا تعرّض أحدهم لعضّة جرذ يجرحون الأماكن المصابة لكي لا تتفاقم حالة المصاب، وحتّى إذا اجتاحت الحمّى جسده بعد ذلك، فإنّها ستكون أخفّ بكثير ممّا لو لم يجرح الموضع المصاب، بعدها سألت خوسيه عن تهمته

وكيف دخل السّجن، ومتى تعلّم العربية؟ فحدّثني حديثا طويلا علمت من خلاله أنّه عمل أكثر من خمس عشرة سنة كمسؤول عسكريّ عن الأحياء العربية المتحالفة منذ زمن بعيد مع الإسبان، كان يسمّيهم الإسبان أيضا المغاطيس، وحدّثني عن خسّة طباعهم، وعيشهم الذّليل في المدينة، ومن خلال تلك المدّة الطويلة التي قضاها خوسيه مسؤولا عن المغطّسين تعلّم لغتهم وكثيرا من عاداتهم وتقاليدهم، ولكنّه قبل نحو عامين، أسندت إليه مهمّة أخرى، فأصبح المسؤول الأوّل على حرس الحصون ولكن يبدو أنّ أحدهم ممّن كان ينافسه على ذلك المنصب الرّفيع، دبّر له مكيدة خبيثة لتزيحه عن ذلك المنصب، فقد اختفت مجموعة كبيرة من الأسلحة التي كانت موجودة في المخازن، وقاموا باتّهام خوسيه، ونسبوا له تلك التّهمة الظّالمة من دون أن ينال محاكمة عادلة، كان خوسيه يتكلّم، بعينين دامعتين، فقد كان يشعر أنّه قد خدم وطنه بإخلاص، ولم يكن ينتظر يوما أن يكون جزاؤه السّجن، ويلطّخ اسم عائلته بتلك التّهمة الحقيرة، حاولت أن أهدّئ من روعه، ولكنّ حزن خوسيه وخيبة أمله كانا أكبر وأعمق من أن تواسيه الكلمات مهما كانت صادقة. كان خوسيه في البداية يتكلّم، وكنت أنا أسأل نفسي وأقول: (ألا يكون هذا الرّجل مبعوثا من الحاكم العام ليتجسّس عليّ، ويرى إن كان هناك جواسيس آخرون في المدينة أعرف

أسماءهم؟) ولكنّي كنت أحسّ في أعماق نفسي، أنّ خوسيه كان صادقا فيما يقول، ولا يمكن أن يكون جاسوسا البتّة. وحتّى لو كان جاسوسا، فأنا لا أعرف من تلك المدينة رجلا إلّا ابن الأحول، وقد سألت (خوسيه) عنه، فقال لي إنّه كان يعرفه ويعرف بكلّ ما حدث له قبل أسبوعين، عندما جاء برفقة صائد للأسود، وقد أمر الحاكم بإعدامه، وتعليق رأسه على باب كاناستيل، بعد أن اعترف أحد الجنود أنّه كان يقدّم له المئات من البياسترات الذّهبية مقابل معلومات حربيّة حسّاسة كان يأخذها لحاكم معسكر، وأمّا الشّاب الذي كان معه، فقد أدخل إلى السّجن، بعدما شكّوا في أمره، ولو تأكّدوا من تورّطه لأعدموه هو الآخر. كنت أسمع لما يقوله خوسيه، وأنا مذهول من المصير الذي لقيه ابن الأحول، ومن المصير الذي كان ينتظرني، وقد لاحظ خوسيه تغيّر سحنة وجهي، واستنتج بنفسه قائلا: (وأنت هو الشاب الذي كان مع ابن الأحول، فأنا أعرف كلّ المغاطيس في المدينة بأسمائهم، وكنت أحسبك في البداية واحدا من أولئك المغامرين الذين يقعون في كمين الجنود الإسبان بالقرب من أسوار المدينة)، أشرت برأسي موافقا لما يقول، فأكّد لي أنّي قد كنت فعلا محظوظا، فالحاكم العام كان غاضبا جدّا، وظلّ ينتظر بفارغ الصّبر عودة ابن الأحول لينال جزاءه المحتوم، وفي غمرة غضبه ذاك، كان قادرا على إعدامي أنا الآخر حسب ما

قاله لي خوسيه. المهم أنّي قد أصبحت مع خوسيه صديقين حقيقيين، وتعزّزت تلك العلاقة أكثر أيّاما قليلة بعد ذلك، وكان بسبب ما ألمّ بخوسيه، فقد شعر بالحمّى تجتاح جسمه بعد بضعة أيّام من عضّة الجرذ، وقد توقّعت هذا الاحتمال منذ اللّحظة الأولى، وتمنّيت أن تكون عواقبها أخفّ عليه، كنت أراه يرتجف، فأقوم بتغطيته جيّدا، ثمّ بدأت حرارة جسمه ترتفع فكنت أسمع هذيانه المتواصل طوال اللّيل، لم يكن بيدي حيلة لأفعل أيّ شيء، كلّ الذي كنت أستطيع فعله، أن أضع خرقة مبلّلة بالماء على رأسه لتخفّ عنه تلك الحمّى المهلكة، ولكنّ جسمه ظلّ كالموقد الذي تتأجّج فيه النّار، فانتابني شعور أنّ تلك الحمّى ستقضي عليه لو تواصلت لأيّام طويلة، ولكن من حسن حظّه أنّ حالته بدأت تتحسّن، يوما بعد يوم. إلى أن أحسّ في نفسه القدرة على القيام من مكانه، وتناول بعض من الحساء الذي كان يأتي به السجّان، ذلك الحساء الذي لم تكن لخوسيه الرّغبة في تذوّق أيّ شيء منه خلال يومين كاملين رغم إلحاحي الشّديد. وفي صباح اليوم الرّابع من مرضه، أخبرني برغبته في الخروج للمشي في السّاحة، بعد أن كان غير قادر على مغادرة الزّنزانة في الأيّام الماضية، كنت سعيدا أن أرى العافية تدبّ من جديد في جسم خوسيه، الذي أكّد لي أنّه لم يكن

يتوقّع أن يبقى حيّا بعد تلك الحمّى التي لم يسبق له أن عاشها من قبل.

بعد تلك الآلام التي مرّ بها خوسيه في أيّام مرضه، بدأت أرى خوسيه آخر غير الذي رأيته أوّل مرّة، كان يضحك ويتكلّم كثيرا وتجدّد أمله في الخروج من السّجن، فراح يرسم على الجدران جداول للأيّام، ومنه بدأت أتعلّم التقويم الغريغوري بسرعة فائقة، فقرّر أن تكون بداية حسابنا من أوّل يوم دخلت فيه السّجن، وكان ذلك اليوم هو الثّاني من أكتوبر 1787، بل وألحّ أن يعلّمني الإسبانية، التي كنت أراها صعبة للغاية، ولكنّ خوسيه غيّر نظرتي إلى تلك المسألة كثيرا، فقد كنت أتعلّم بسرعة، حتّى أنّ خوسيه كان يتعجّب من قوّة ذاكرتي وقدرتي على محاكاة لكنته بمهارة تفوق حتّى طريقة حديث أولئك المغاطيس الذين كانوا يعيشون بينهم منذ عشرات السّنين. كنت أعتبر ذلك كلّه من بركات حفظي للقرآن الكريم صغيرا، وفي ذلك الوقت كنت أناكف خوسيه، وأضحك من نطق الإسبان للجيم خاء، وأتحدّاه أن ينطق بعض الكلمات العربية بالجيم، وخاصّة كلمة (مرجاجو) فيتلجلج في لفظها، وأضحك أنا من مكابدته لنطقها بالجيم، ومنذ تلك الأيّام بدأ يناديني (مرجاجو)، وخاصّة عندما كان يراني أديم النّظر بإمعان لقمّة الجبل. كانت تلك اللّحظات المرحة تكسر شيئا من كآبة العيش في الزّنزانة.

وعلى الرّغم من فارق السّن والاختلافات الكثيرة التي كانت بيني وبين خوسيه، فقد كنت أحسّ أنّ للألم المشترك الذي كنّا نتجرّعانه داخل السّجن، قدرة عجيبة على أن يجمع بين أشدّ الأشياء تناقضا، فكانت الزّنزانة التي تقاسمناها تسع اختلاف عادات ومعتقدات كلّ واحد منّا، وهذا ما اتفقت عليه أنا وخوسيه، وإنّي اليوم أقرّ منصفا بفضل ذلك الرّجل عليّ، فلم يكن يمرّ يوم من أيام سجني معه، إلّا وكنت أتعلّم منه أشياء جديدة عن التّاريخ الأوروبي، وجغرافيا العالم، والكثير من تفاصيل الصّراع المحموم بين الأمم المتنافسة في البحر المتوسّط، وموازين القوى فيه، عن الأراضي الغنيّة التّي تسيطر عليها إسبانيا وراء بحر الظّلمات، بل وحدّثني حتّى عن الوجود الإسلامي في الأندلس، وأنّ العالم الحديث يدين بالفضل الكبير لتلك الحضارة إلى ما وصل إليه، لأجل ذلك كنت أرى خوسيه كنزا لا يقدّر بثمن، وبحرا من المواهب النّادرة. لقد استطعت من خلاله أن أفهم تاريخ وهران منذ وقوعها بين أيدي الإسبان سنة 1509، قال لي إنّ من قاد حملة الاحتلال تلك هو الكاردينال خيميناس (Ximénès) الذي كان يجمع بنفسه الأموال من المؤمنين لتمويل أسطول الغزاة، بعدما رفض الملك فردناند تجهيزه من الخزينة، لأنّ ذلك كان سيكلّف إسبانيا أموالا طائلة هي في أمسّ الحاجة إليها. كان الإسبان حسب خوسيه يريدون

نقل الخطر من سواحلهم إلى سواحل الغرب الإسلامي، بعدما أجهزوا على آخر قلاع المسلمين في الأندلس، بسقوط غرناطة سنة 1492. ولقد ترافق اجتياح وهران مع مجازر فظيعة راح ضحيّتها الآلاف من المسلمين، وجرت أودية الدّماء في شوارع وأزقّة المدينة، وأضحت وهران منذ ذلك الحين بين أيدي الإسبان بعدما استولوا سنوات قبل ذلك على المرسى الكبير، إلّا مدّة يسيرة دامت من سنتي 1708 إلى سنة 1732، وقد تمّ تعزيز دفاعاتها في المرّة الثّانية، فأصبحت أقوى ممّا كانت عليه في السّابق، حتّى أنّ خوسيه لمّا كان يرى حماسي، وأنا أؤكّد له أنّنا سندخلها فاتحين في يوم من الأيّام، كان يهزأ من ذلك، فيشتدّ النّقاش بيني وبينه ساعتها، فيقول لي بلهجة الواثق: (إنّ المدينة محصّنة بشكل لا يمكنك تصوّره، وإنّها مهيّأة لمواجهة مردة الجنّ والشياطين أنفسهم، وليس مجرّد جنود عاديين، وجحر الأفعى ذلك الحصن المنيع الذي تراه كلّ يوم في السّاحة، ليس إلّا واحدا من مجموعة كبيرة من الحصون الأشدّ منعة، فالبرج الأحمر وحده يتوفّر على ثلاثمئة مدفع كبير، وجميع تلك الحصون مرتبطة فيما بينها بسراديب سريّة تحت الأرض... إنّك تحلم يا صديقي، فإسبانيا التي لا تبعد إلّا ساعات عن وهران وتحكم منذ قرون أراضي واسعة وراء البحور لن تسمح لأحد بانتزاع وهران من التّاج الإسباني) هكذا كان يقول خوسيه. أمّا

أنا، فكنت أحلف له أنّنا سنفتحها عاجلا أم آجلا، وأنّ الإسبان سيندحرون، كما اندحروا في معركة الحرّاش قبل سنوات قليلة، ولكنّي مع ذلك كنت مع صديقي خوسيه سرعان ما نطوي تلك النّقاشات المحمومة، ولا ندعها تعكّر ما كان بيننا من صداقة وثيقة، لأنّنا كنّا ببساطة مجرّدين من حريّتنا، وليس بأيدينا أن نغيّر من واقع الأمر شيئا، وظلّت تلك العلاقة على ما هي عليه، إلى غاية صباح ذلك اليوم الذي دخل فيه السجّان إلى الزّنزانة باكرا، وهو الوقت الذي لم نكن معتادين أن نراه فيه وأمر خوسيه بالخروج معه، حينها قام خوسيه من مكانه والتفت إليّ، فتبادلنا نظرات مبهمة، أحسست أنّه كان يريد أن يقول لي شيئا، ولكنّ السجّان استعجله للخروج، كان ذلك هو آخر يوم لخوسيه في السّجن، فلم يرجع بعدها إلى الزّنزانة مرّة أخرى، لم يكن ثمّة شيء يوحي بأنّه لن يعود، ولكنّ الوقت كان يمضي، والباب كان لا يفتح، حتّى بدأ اليأس يتسرّب لنفسي ومع دخول السجّان وحيدا ساعة الغداء، تأكّدت من أن خوسيه غادر السّجن، ولن يعود أبدا. لم يكن هناك سبيل لسؤال السجّان عن ذلك، فقد كان فظّا غليظا، يضرب بهراوته لأدنى كلمة تنبس بها شفاه المسجونين، وكم كان مزعجا أن أرى نفسي وحيدا مرّة أخرى، بعدما اعتدت على رفقة صديقي خوسيه لأكثر من سنتين ونصف، لقد كانت وحدتي بعد ذلك

أفظع، وأشدّ مرارة من السّابق، فساد صمت القبور من جديد في الزّنزانة، واستطالت أيّام وليالي السّجن، ولم أكن أجد أحدا أكلّمه، حتّى خشيت أن تضيع الكلمات هي الأخرى منّي، فكنت أكلّم نفسي كالمجانين، وأعجب من تلك الأصوات التي تتألّف منها اللّغات، هكذا كان السّجن قادرا على أن يجعلني أعيد اكتشاف مئات الأشياء التي كانت تختفي عنّي معانيها في ضجيج الحياة قبل تلك المحنة المريرة، أصبحت في مواجهة ذكرياتي، وكلّ صور من أحببت، لا أنام ولا أصحو إلّا على صورهم المنقوشة في خيالي؛ أبي وابنتي زينب، إخوتي أحمد وعبد الرّحمن وأم الخير وكلّ الذين عرفتهم، كنت أسأل نفسي إن كانوا أحياء، أم أمواتا. الكلمات وحدها لا يمكن أن تصف ما كنت أعيشه، فقد كنت مفزوعا في نومي، وشاردا تائها في صحوي، لم يكن هناك أسوأ من السّجن ليجلد روحي بألف سوط من النّدم على فوات كلّ لحظة سعيدة فرّطت فيها إلى جانب من أحب، ولكنّي رغم كلّ ذلك كنت ألتمس العون من الله، ولطالما كنت أقرأ تلك الآية الكريمة كلّما تسلّل اليأس لنفسي: (واصبر لحكم ربّك فإنّك بأعيننا وسبّح بحمد ربّك حين تقوم ومن اللّيل فسبّحه وإدبار النّجوم) فكنت أحسّ بمعية الله، وسابغ رحماته، فتنبعث في نفسي أنوار الأمل، فأصلّي وأدعو بالفرج القريب، ذلك الفرج

الذي لم أكن أتوقّع يوما أن يأتي على تلك الصّورة التي رأيت وكان الله على كلّ شيء قديرا.

.06.

لم تكن ليلة الثّامن إلى التّاسع من أكتوبر من سنة 1790 ليلة عادية إطلاقا، فقد استيقظت بعد منتصف اللّيل على مواء القطط التي كانت تأتي أصواتها من خارج الزّنزانة في الرّواق الممتدّ، كانت تلك الأصوات مألوفة لدى السّجناء باللّيل، حيث تتسلّل القطط من بين قضبان الباب الخارجي للرّواق لتطارد الجرذان التي كانت تسكن الشّقوق الكثيرة الموجودة على الجدران المتداعية للسّجن، ولكنّها في تلك اللّيلة كانت تموء مواء غريبا لم يسبق لي أن سمعته طوال حياتي، فقد كان مواء متّصلا، وبوتيرة متصاعدة، ودام ذلك نحو ربع ساعة، وفجأة أحسست، وكأنّ الأرض تهتزّ وترتجّ بقوّة من تحتي، وأرى الجدران تتصدّع من حولي.. كنت أحاول أن أتشبّث بالأرض، وألصق ظهري إلى الحائط من خلفي، وأصرخ وأستغيث.. يا ألله.. يا ألله.. ولحظتها بدأ دويّ سقوط كتل هائلة من الصّخور من سقف الزّنزانة، وفي لمح البصر لفّ الظّلام الدّامس المكان، ماذا حدث؟ توقّف كلّ شيء، كان كلّ شيء هادئا، فلم أحسّ بشيء، وإنّي لا أدري إلى اليوم كم مضى من الوقت حتّى وجدتني أفتح عينيّ على ظلام مطبق، قلت في نفسي إنّما أنا ميّت، وهذه الظّلمة هي ظلمة القبر، ولا بدّ أن يظهر أمامي الملكان بعد قليل، ولكنّي كنت

حينها جالسا، فتساءلت كيف تمّ دفني هكذا، ثمّ إنّي كنت أتنفّس بصعوبة بالغة، ونقع غبار كثير كان يملأ منخريّ وصدري، عاد إليّ الوعي تدريجيا، فحاولت في البداية أن أتحسّس جسمي، ولكنّ يديّ كانتا عالقتين في مكان ضيّق، فلم أستطع تحريكهما إلى وجهي، فتذكّرت حينها ما حدث لي عندما بدأت الأرض تتحرّك من تحتي، وأدركت أنّي عالق بين أنقاض زلزال مدمّر، وأنّ الموت هو مصيري المحتوم، إلى أن بدأت أسمع أصواتا مختلطة وفزعة، كان صراخا وعويلا يأتي من الأعلى فرفعت رأسي، وهنا كانت المفاجأة التي لم أكن أتوقّعها، فقد رأيت فرجة على بعد خمسة أو ستة أذرع، ومن تلك الفرجة كنت أرى غبارا أحمر، وأشمّ دخانا كثيفا يبدو أنّه كان نتيجة حرائق قد اندلعت في مكان قريب، كنت أحاول أن أصعد إلى تلك الفرجة بالاستناد إلى الصخور من حولي، وفي غمرة استعجالي للنّهوض، ارتطمت جمجمتي بصخرة مدبّبة فأحسست بعدها بالدّم يسيل على جبهتي وصدغي، ولكنّي واصلت المحاولة حتى استويت قائما، ولمّا لم يكن هناك متّسع لرفع اليدين لضيق الفجوة، فقد حلّت قدماي محلّهما، فرحت أتسلّق بهما النتوءات الصّخرية، وأدعو الله، وأتوسّل بأسمائه الحسنى أن يعينني، وما هي إلّا لحظات حتّى وجدت نفسي خارج الحطام، فوقفت حينها مبهوتا ممّا كنت أرى، وقلت في نفسي: (يا

للهول! كأنّه يوم العرض الأكبر) فقد كان شيئا لا يكاد يصدّقه عقل إنسان، كلّ شيء أصبح من حولي ركاما متراكبا كالجبال وفي الأفق حرائق ترتفع ألسنتها عاليا، وغبار خانق يملأ السّماء فيما كانت الأصوات متداخلة، وصخبها مزيج من صراخ وعويل يتخلّلهما دويّ انفجارات هائلة، فلم أشكّ لحظة أنّ كميات كبيرة من البارود الموجود في المخازن الحربية قد طالتها ألسنة النّار، كنت مذهولا لا أعلم ما أفعل، وإذ بي أشعر بهزّة أخرى لا تقلّ عن ما أحسسته في المرّة الأولى، فتملّكني الفزع، وبقيت متسمّرا في مكاني إلى أن عاد الهدوء من جديد، فقرّرت بعدها التحرّك سريعا، فلم يكن لي حلّ إلّا الوصول إلى إحدى بوابات المدينة الخمسة، لعلّي أجد هناك منفذا سالكا في ظلّ حالة البلبلة العامّة التي كانت تعيشها المدينة، كنت أجري مذعورا وأرنو بعينين ذاهلتين إلى ذلك الخراب الرّهيب الذي حلّ بالمدينة؛ قصور متهاوية، وأشجار تحترق، وتحرق كلّ شيء من حولها، لقد أمسى ليل المدينة نهارا، وتحوّل ثلثا المدينة إلى ركام من الحجارة والأتربة والرّماد. ولقد رأيت بأمّ عيني عند السّاحة الكبيرة للمدينة، عوائل تهرع متدافعة للفرار من آثار الهزّات المتعاقبة التي بثّت في نفوسهم الفزع، أمّا أنا فقد كان الشّيء الوحيد الذي فكّرت فيه، أن أصل في أسرع وقت إلى أسوار المدينة، وأعانني على ذلك تذكّري للطّريق التي كانت تؤدي

للبوّابة التي دخلت منها أوّل مرّة إلى المدينة برفقة ابن الأحول رحمه الله، كنت أجري متخطّفا خشية أن يعرفني أحد الجنود فيقبض عليّ، أو يرميني برصاصة من بندقيته، ولكن في الحقيقة كان النّاس مذهولين، ويجرون في كلّ اتّجاه، كلّ واحد يسعى إلى خلاصه الفردي من موت وشيك، فقرّرت محاذاة السّور، فبدا لي على هيئته لم تتصدّع جدرانه، وقد كان سميكا يمتدّ إلى عدّة أمتار، لم أشأ الاقتراب منه كثيرا، لأنّ كلّ شيء كان مكشوفا أمام حرّاس أبراج المراقبة، رغم حالة الهلع التي كانوا عليها، وقد رأيت أحدهم يهوي من أحد البروج على الأرض بعد واحدة من تلك الهزّات المتتابعة، التي أعقبت الهزّة المدمّرة الأولى، كان منظرا مريعا، تحوّلت بعده رأسا في اتّجاه البوابة الضّخمة، حيث وجدت المئات من النّاس قد هجموا على الحرّاس ليدفعوهم إلى فتح أقفال البوّابة، والسّماح لهم بالفرار من جحيم الهلع الذي كانوا يعيشونه داخل المدينة، ولكنّ الحرّاس أخذوا في تخويفهم، وقد سمعت أحدهم يصرخ أمام تلك الحشود، وهو يقول: (إنّ المفاتيح موجودة في بيت الحاكم العام، ولا يحضرونها إلى هنا إلّا مع الصّباح، وإذا لم تتراجعوا فسنطلق الرّصاص عليكم)، وأمام إصرار الجموع، التي واصلت تقدّمها نحو البوّابة، لم يكن أمام الحرّاس بعد ذلك إلّا إطلاق رصاصاتهم التّحذيرية في اتّجاه السّماء، ولكنّها كانت كافية لأن

تجعل الجميع يولّون أدبارهم فزعين، فوقفت وسط تلك الحشود المتدافعة مشدوها، مشوّش الأفكار، بعد أن أعيتني الحيلة لإيجاد مهرب إلى خارج المدينة، وهنا سمعت صوتا مألوفا من ورائي: (ايه.. مرخاخو.. مرخاخو)، فالتفتّ، وكم كانت مفاجأتي كبيرة، وأنا أرى أنّ صاحب ذلك الصّوت، هو صديقي خوسيه، الذي عانقته عناقا حارّا، وكنت سعيدا لنجاته، حدّثته بلهفة عن كلّ ما حصل لي بعد الهزّة الأولى، وكيف نجوت بأعجوبة من تلك الأنقاض الهائلة، ألحّ علي خوسيه بعد ذلك بالعودة معه فورا إلى المدينة، وأن أرافقه إلى بيته، فلم يعد هناك أمل لمكان آمن خارج أسوار المدينة، كان بيت خوسيه قد انهار جزئيا، ولكن مع ذلك كان صديقي أكثر حظّا من الكثيرين الذين تحوّلت بيوتهم إلى أطلال، وأثرا بعد عين، حاولنا أن نبقى بعيدين عن الجدران، وفضلنا الجلوس في وسط ذلك الفناء الفسيح الذي كان يتوسّط حجرات البيت، وبقينا هناك في العراء إلى الصّباح، تحدّثت مع خوسيه، عن كلّ ما عانيته من وحدة بعد أن تمّ إخراجه من الزّنزانة في ذلك الصّباح الباكر وخوفي من أن يكون قد حصل له مكروه، قال لي إنّ الحاكم العام قد استدعاه يومها لمقرّه، لمّا ظهرت حيثيات جديدة في القضية التي سجن بسببها، وأنّهم كشفوا المتورّطين الحقيقيين الذين دبّروا سرقة الأسلحة من المخازن ليورّطوه مع الحاكم

الذي قام بردّ الاعتبار له، وأمر بإرجاعه فورا لمنصبه، ولكنّ خوسيه اعتذر عن العودة لمهامه السّابقة، وفضّل العمل في التّجارة، والتريّث قليلا إلى أن تستقرّ أحواله المالية، ثمّ يرسل لزوجته وأبنائه بالعودة مرّة أخرى إلى وهران، بعد أن غادروها في فترة سجنه. كان خوسيه، وهو يحدّثني عن أهله، في غاية السّعادة إذ لم يكونوا معه بالمدينة في أثناء ذلك الزّلزال المدمّر وأكّد لي أنّه يفكّر جدّيا في الرّحيل نهائيا إلى إسبانيا، لأنّ الحياة في المدينة بعد الزّلزال ستصبح صعبة للغاية.

في الصّباح خرج (خوسيه) إلى المدينة، بعدما ألحّ عليّ في عدم المغادرة من البيت إلى أن يؤمّن لي طريقا آمنة للنّجاة خارج أسوار وهران، خرج خوسيه، وبقيت طيلة النّهار أنتظر عودته بقلق كبير، كنت متوتّرا أقلّب كلّ الاحتمالات السيّئة في رأسي، فلم أكن مستعدّا أن أتخيّل نفسي عائدا من جديد إلى سجن آخر أقضي فيه بقيّة أيّام حياتي، ولكنّي مع ذلك كنت أشعر في قرارة نفسي أنّ الله سيجعل لي مخرجا ما، وإن لم أكن قادرا أن أعرف على أيّة صفة سيكون.

في المساء جاء خوسيه، وقد قرأت من ملامح وجهه أنّه كان حزينا، وعيناه متعبتان، وقد صدق حدسي، ولكنّه قبل أن يقول شيئا، وضع على الأرض منديلا لفّت فيه قطع من الخبز فجلسنا نأكلها، كان خوسيه مطرقا بنظراته إلى الأرض، ثمّ قال

لي كلاما لا يزال عالقا في عقلي، وزاد من احترامي لذلك الرّجل النّبيل، قال: (لا تقلق يا مرجاجو! لقد أمّنت لك طريقا للخروج من المدينة، وإذا سارت الأمور كما خطّطت لها، فستكون مع صباح الغد خارج أسوارها الحصينة، ما يؤلمني هو ما آلت إليه المدينة، فقدت تحوّلت إلى جبال من الحجارة، ومات الآلاف من السكّان تحت الأنقاض، بما فيهم الحاكم العام لوهران، الدّون نيكولا غارسيا الذي لم نجد أثرا لجثّته، ولا لجثث باقي أفراد أسرته. منذ الصّباح ونحن نحاول انتشال الضّحايا، والتّخفيف من الهلع الذي أصاب النّاس، الذين لا يزالون في السّاحات شبه عراة مع أطفالهم ونسائهم، وإلى جانبهم مئات من الجرحى الذين لم يجدوا علاجا بعد انهيار المستشفيين، وانعدام الأدوية التي طمرت تحت الرّدوم، حتّى المخابز تهاوت، ومخازن الحبوب احترقت، فلم يجد الحاكم الجديد الكونت دي كومبر هرموزا (comte de Cumbre-Hermosa) الذي عيّن صباحا إلّا أن أمر ما بقي من الجيش بتجهيز أفران في السّاحة العامّة لتجنّب ما هو أسوأ، لقد عاث اللّصوص في المدينة، واستشرى النّهب في أحيائها، بعدما طالت تلك الأيدي الآثمة الأحياء والأموات بحثا عن الأموال والذّهب وكلّ الأغراض الثّمينة، حتّى العيون غارت في باطن الأرض، وسقط تمثال مريم العذراء، وكأنّ اللّعنة قد حلّت في هذا المكان. وإن لم يستعجل الملك بالاستجابة لنداءات

النّجدة التي أرسلناها له هذا الصّباح فستحلّ الكارثة المحقّقة فنحن بحاجة إلى تعويض المئات من الجنود الذين فقدناهم وأن ترحّل هذه الأفواه الجائعة من المرضى والمسنّين في أقرب وقت ممكن. أمّا أنت يا مرجاجو، فأنا أعلم أنّك قد عانيت كثيرا، وأنّه قد آن الأوان لتجد طريقك إلى السّعادة من جديد ما حدث لي اليوم أكّد لي أنّ عناية الله معك، وأنّ صلواتك ودعاءك لربّك طيلة المدّة التي قضيناها معا في السّجن قد آتت أكلها، فقد أرسل إليّ الحاكم الجديد مجموعة من الجنود التقيت بهم أثناء خروجي من البيت، وقد علمت منهم أنّه كان يريد أن يراني لأمر هام، غير أنّهم لم يكونوا متأكّدين إن كنت حيّا أم لا، ولدى مثولي بين يدي الكونت دي كومبر هرموزا أخبرني بأنّه بحاجة ماسّة إلى كلّ جندي في هذه الظّروف الصّعبة من أجل حفظ النّظام داخل المدينة، وأنّ من واجبي أن أشارك في هذه المهمّة العاجلة من خلال تولّي منصبي السّابق كمسؤول عام عن حرس الحصون والأبراج، وكلّفني بحكم مهامي السّابقة أن أختار مجموعة من المغاطيس للخروج إلى الأرياف العربية وشراء كمّيات مستعجلة من الحبوب، يتم حملها لاحقا بالقوارب عبر السّاحل، وقد استجبت طواعية لأوامر الحاكم الجديد، وسأبدأ عملي منذ ليلة اليوم) وهنا وضع خوسيه يده في داخل صدريته، وأخرج ورقة مختومة، وقال:

(هذا تصريح لك بالخروج، وهو باسم رجل عربي مات ليلة الزّلزال يسمّى عامر بن إسماعيل. ستكون عند البوابة مع طلوع الشّمس، وستقدّم هذا التّصريح للحرّاس، الذين سيفتحون لك البوابة فورا) يومها لم أجد الكلمات المناسبة لشكر خوسيه ولكنّي وعدته، بأنّي لن أنسى صنيعه ذاك ما حييت. تعانقنا عناقا حارّا، وودّعت صديقي على أمل لقاء جديد. لحظتها قال لي خوسيه، مداعبا: (أعلم أنّك سترجع قريبا لمحاربتنا، ويومها ستجدني هنا عند أسوار المدينة للدّفاع عنها، وسيقوم كلانا بما يمليه عليه الواجب).

كانت اللّيلة التي قضيتها في فناء بيت خوسيه دافئة بعض الشيء، وهذا بفضل الأغطية والأفرشة الجيّدة التي تركها لي خوسيه قبل أن يخرج لمهامه الجديدة، وقبل أن تبزغ الشّمس بقليل، أخذت طريقي إلى بوابة (كاناستيل)، وأنا أحمل في يدي اليمنى تصريح الخروج كما أوصاني خوسيه، وأظنّ أنّ ذلك كان من تدبيره المحكم، ففي الطّريق مررت بعدّة دوريات عسكرية وحرّاس تفتيش، فلم يستوقفني أحد، حتّى وجدتني أمام البوابة فتقدّم إليّ أحد الحرّاس، وطلب منّي تصريح الخروج، وبعد أن قرأه جيّدا، أعطيت الأوامر لنزول الجسر، وكنت بعدها حرّا ولكن بعد أن سرق من عمري ثلاث سنوات كاملة كدت أن أكون

فيها من الهالكين، لولا عناية الله الذي لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه.

.07.

كان عليّ أن أتدبّر أمري جيّدا، وأنا أخطو خطواتي الأولى خارج أسوار وهران، ولمّا لم أكن أعرف الطّريق جيّدا إلى معسكر، فلم يكن أمامي إلّا أن أسلك طريق الشّرق مسترشدا بالشّمس، وأحاول أن أحثّ السّير ما استطعت حتّى أصل إلى الباي في أقرب وقت ممكن، وأطلعه على كلّ ما حدث في وهران فالأخبار لم تكن تحتمل التأخير، كانت الطّريق التي سلكتها كلها غابات وأحراشا كثيفة، قطعت غصنا قويا من شجرة سرو واتخذت منه عصا أواجه بها أيّ خطر محدق، ومضيت في المشي، على أمل أن أصل قريبا إلى مضارب بعض القبائل العربية، فيعيرني أحدهم جوادا سريعا أستعين به في سفري إلى معسكر، فقد كنت أعلم أنّ الباي محمّد بن عثمان الأكحل كان يحاصر الإسبان بتشجيع القبائل على ضرب خيامها بالقرب من وهران، حيث أقطعها أخصب الأراضي، ورفع عنها كلّ الحقوق المخزنية التي كانت مفروضة على باقي القبائل، ونتيجة لذلك لم يكن أمام الإسبان إلّا أن يبثّوا عيونهم في كلّ مكان ليأمّنوا جيّدا خرجاتهم المنظّمة لنقل ما يحتاجونه من الغذاء إلى داخل المدينة. كنت أكاد أطير من السّعادة بعد أن عانقت حريتي من جديد، وحتّى تلك الغابات الموحشة كنت أحسّها وطني

وعشّي الدّافئ الذي عدت إليه. لم أشعر بالخطر حينها، لأنّي كنت أعلم أنّ الوحوش البريّة لا تخرج غالبا للبحث عن طرائدها إلّا باللّيل، ومع ذلك فالجوع قد يجعلها تخالف عاداتها تلك فتفترس ضحاياها حتّى في واضحة النّهار، كان عليّ أن أحتاط جيّدا أن أؤخذ على حين غرّة، ولكنّ المفاجأة كانت من جهة أخرى لم أكن أتوقّعها، فبعد نحو ساعتين من المشي الحثيث أحسست بحركة مريبة من حولي، خشخشة أوراق، ووقع أقدام، فتوجّست خيفة، وحاولت أن أصيخ بسمعي لمصدر تلك الأصوات، كنت كلّما خطوت بضع خطوات، أسمع تلك الحركات من خلفي، وعندما أتوقّف، تتوقّف هي الأخرى، إلى أن رأيت بين الأشجار رجلا يسرع ليختفي وراء أحد الجذوع العظيمة، وقد باغتته التفاتتي المفاجئة إليه عندما كان يحاول الاقتراب منّي رفعت عصاي، وأجمعت أمري على العودة إليه ومواجهته، وهنا رأيت ثلاثة من الفرسان يظهرون أمامي ببنادقهم الطويلة وصرخ أحدهم أمامي بصوت مجلجل: (توقّف يا عدوّ الله، قد وقعت في شرّ أعمالك أيّها المغطّس الخبيث!)، لم أجد ما أجيب به ذلك المقاتل، فقد ظننت أنّها مكيدة من مكائد المغطّسين، أو من بعض القبائل المتواطئة معهم، ليكشفوا حقيقتي، فآثرت الصّمت، ولقد لفت نظري بعدها أنّ أحدهم كان يحمل بإحدى يديه ثلاثة أرانب، فأدركت لحظتها أنّهم كانوا مجموعة من

القنّاصين، خرجوا للغابة في جولة صيد، ولكنّي مع ذلك، لم أشأ أن أغيّر موقفي. وبعد أن قام ثلاثتهم بتكتيف يديّ، اقتادوني معهم إلى حيث كانوا يربطون خيولهم، وفي عيونهم فرحة غامرة بما غنموه من صيد ثمين، فقد كنت في نظرهم جائزة مغرية يتوقّعون أن يحصلوا من ورائها على مكافأة مجزية، أمّا أنا فلم يكن يهمّني شيء، بعد أن تأكّدت أنّهم ليسوا متعاونين مع الإسبان، فانتظرت إلى أن وصلنا بعد نحو ساعة إلى مضارب بيوتهم، وتوجّهوا بي مقيّدا إلى شيخ القبيلة، فأخبرته بأنّي لست من المغاطيس، وأنّي مستعجل للذّهاب إلى معسكر لمهمّة كلّفني الباي بإنجازها، فما كان من الشّيخ إلّا أن أحسن وفادتي ومنحني حصانا قويّا، وأمر فارسين بمرافقتي إلى أن أصل إلى معسكر، وبعد يوم من السّير المجد كنت أخيرا في معسكر، وكان ذلك صباح يوم الاثنين، وهو اليوم الثالث من يوم الزلزال كانت مفاجأتي كبيرة، وأنا أرى المئات من الفرسان قد تجمعوا في ظاهر المدينة، كانت حركتهم دؤوبة، يسرجون خيولهم، ويحملون على البغال والجمال، الأمتعة والمؤن. لم أفهم ما كان يحدث بالضّبط، ولكن كلّ شيء كان يوحي باستعداد الجميع لحرب وشيكة، وأوّل شيء فعلته عند دخولي إلى المدينة، هو الذّهاب إلى قصر الباي، فاستأذنت في الدّخول عليه، فأشار إليّ الحرّاس بالرّجوع، لأنّ الباي مشغول جدّا، ولا يمكنه استقبالي في تلك

السّاعة، ألححت عليهم بضرورة الدّخول لأنّي كنت أحمل أخبارا عاجلة من وهران، ويجب أن أطلع الباي عليها في الحين، وهنا طلبوا منّي الانتظار قليلا حتّى يخرج من كان عنده من القادة والوجهاء، كان يبدو أنّ حالة من الاستنفار العام تخيّم على المكان، وبعد ساعة من الانتظار، خرج من بوابة القصر، رجال من حاشية الباي، ومعهم قادة من جيش المحلّة، وبعض الفرسان العرب. ودخل الشّاوش إلى الباي ليطلب لي الإذن بمقابلته، ومن فوره عاد يستعجلني بالدّخول، ولست أنسى ما حييت تلك اللحظة التي وجدت فيها الباي محمّد الأكحل مقبلا عليّ فاتحا ذراعيه، وفي عينيه فرحة أبويّة، أحسست بها وهو يعانقني عناقا حارّا، ثمّ أخذ بيدي، وأجلسني قرب عرشه فوجدته قد أحاط علما بكلّ ما حدث لي في وهران، وذكر ابن الأحول، فدعونا الله أن يتقبّله في الشّهداء. بعدها سألني الباي عن الزّلزال الذي شعروا به في معسكر، فوصفت له بالتفصيل ما حلّ بالمدينة من خراب، بعدما تحوّل ثلثاها إلى أطلال، وأثرا بعد عين، كان الباي ينصت لما أقول باهتمام بالغ، ولفت انتباهي أنّه كان يسألني عن أدقّ التفاصيل، وخاصّة عن حالة أسوار المدينة وحصونها، فقلت له إنّها لا تزال محصّنة، وبناءاتها الحربية كانت تبدو لي على حالتها الأولى، ولكنّي أكّدت له أنّ المدينة قد فقدت الآلاف من جنودها ورجالها القادرين على

مواجهة أيّ خطر خارجي، وكم كنت سعيدا أن أسمع من فم الباي محمّد بن عثمان الأكحل أنّه قد عزم فعلا على الخروج إلى وهران، وشنّ الحرب على الإسبان، بعدما بلغته أخبار الزّلزال من بعض عيونه قبل دخولي إلى معسكر بيوم كامل، وهذا ما أثار إعجابي ودهشتي في نفس الوقت، وأكّد لي كلّ ما قيل لي ورأيته في شخصية الباي، فقد كان يصل إلى أهدافه بحسن تدبيره وقوّة عزمه، فلا يكاد يغفل شيئا في سبيل ذلك. يومها لم أتردّد لحظة في أن أطلب منه أن أكون واحدا من الجنود الذين سيحضون بمرافقته إلى ذلك الشّرف العزيز، رغم ما كنت أشعر به من الشّوق لزيارة أهلي بشرق البلاد، وهذا ما زاد في سعادة الباي، فأوصاني أن أتجهّز للخروج معه، لأنّه خارج إلى وهران من يومه.

****

كانت حركة النّاس في السّوق دؤوبة ذلك الصّباح الذي خرجت فيه من قصر الباي متوجّها إلى الدكّان الذي كنت فيه شريكا لقدور بن عودة، كانت لحظات لا تنسى، عندما كنت في طريقي للقاء صديقي الذي لم أره منذ ثلاث سنين، فالنّاس كانوا مبتهجين لسماع خبر عزم الباي على غزو الإسبان، وافتكاك وهران من بين أيديهم إلى الأبد، سمعت بعضهم يحدّث جماعة من النّاس عن صدق الرؤى والمبشّرات التي كان يراها

الصّالحون قبل وقوع الزّلزال المدمّر الذي حلّ بوهران، وكلّها تشير إلى اقتراب الفتح الوشيك، فيما كان آخرون يتحدّثون عن كيفية وقوع الزّلازل، فسمعت أحدهم يقول إنّ الأرض توجد فوق ظهر ثور عظيم، وحالما تدخل في أنف ذلك الثّور الهائل ذبابة، حتّى يحرّك الأخير رأسه وباقي جسمه الضّخم، فترتجّ الأرض ويهتزّ كلّ من عليها على إثر تلك الحركة المباغتة، ويهلك النّاس..

كان قدّور بن عودة يغمس لفافات من الصّوف في الحوض الملوّن، ويغمغم بصوته الأجشّ دندنات غير مفهومة، عندما كنت واقفا عند باب الدكّان أرنو إلى صديقي الخمسيني البدين وهو منهمك في العمل بجد كعادته دائما. ألقيت عليه السّلام فردّ عليّ من دون أن يلتفت وراءه، وأردف متذمّرا: (ادخل يا أخي فقد سددت الضوء عنّي!) حينها قلت له، بعد أن لم أتزحزح عن مكاني قيد أنملة: (أنت هو صاحب الدّكان؟) وهنا ترك قدّور ما بيديه، والتفت مغضبا، ويداه تقطران بالسّائل الملوّن، وقبل أن يقول شيئا، نزلت عتبة الباب، وفتحت ذراعي مبتسما، من دون أن أنبس ببنت شفة، فرأيت بعدها وجه قدّور متهلّلا، بعد لحظة تردّد، فكان لقاء أخويّا، ذرف فيه كلانا عبرات حرّى وكان قدور متأثّرا لرؤيتي من جديد بعدما يئس من ذلك واعتقد أنّه قد حدث لي مكروه، بعد أن غادرت معسكر، ورغم

محاولاته العديدة لمعرفة الوجهة التي سلكتها، فإنّه لم يصل إلى ما يشفي غليل أسئلته، أخبرني أنّ مظهري قد تغيّر كثيرا، بعدما أطلقت لحية كثّة، وفقدت كثيرا من وزني، جلست مع صديقي قدّور، وتجاذبنا أطراف الحديث، فحدّثته بكلّ ما حصل لي منذ لحظة خروجي من معسكر، إلى غاية خروجي من وهران بعد ذلك الزّلزال العجيب الذي أخبرني قدّور أنّهم قد شعروا به هم أيضا في معسكر، وقد أحدث بعض الأضرار الطّفيفة التي أصابت بعض البنايات القديمة. لم يكن لي الوقت الكافي لأجيب دعوة قدّور للغداء معه في بيته، فقد أخبرته بأنّي عائد من فوري مع جيش الباي إلى وهران لقتال الإسبان، وقبل أن أودّع صديقي على أمل الالتقاء به قريبا إذا كتب الله في العمر بقيّة ذكر لي أنّه قد جاء إليه من أهلي من يسأل عن أحوالي في فترة الغياب تلك، وقال إنّ زيارات أولئك المبعوثين من الجوامع تواصلت إلى ما يقرب من السّنتين قبل أن تنقطع تماما في المدّة الأخيرة، وكان بينها في إحدى المرّات زيارة لأخي عبد الرّحمن وابن أخي خالد، حينها لم أستطع تمالك نفسي، فأغرقت قدّور بسيل من الأسئلة عن أخبار الجوامع، وما حلّ بأهلي منذ يوم خروجي إلى معسكر، فلم يجد الأخير كيف يجيبني، ولكنّه اكتفى بالقول بأنّهم كانوا مشتاقين لرؤيتي، وأنّ والدي الحاج محمّد كان يلحّ عليهم في البحث عنّي، ويوصيهم بأن لا ييأسوا من ذلك. حينها

ورغم كلّ تلك العواطف التي كانت تتنازع نفسي، لم أشأ أن أستسلم لذلك الضّعف النّفسي، الذي كان يحدّثني بالعودة فورا إلى أهلي لأطفئ لوعة الشّوق المضطرم في روحي كالنّار المتأجّجة. فكّرت بأنّه لم يعد أمامي إلّا معركة حاسمة ضد الإسبان يمكنني الرجوع بعدها إلى الجوامع مطمئنّ البال، وقلت في نفسي إنّ ذلك لن يستغرق أكثر من شهر على أكثر تقدير. وقبل ظهيرة ذلك اليوم، خرجت في الجيش الذي جمعه الباي فكنت مرهقا للغاية، بالكاد أستطيع مقاومة النّعاس الذي هجم عليّ فجأة، بعدما لم يغمض لي جفن منذ أن غادرت وهران كانت تلك هي المرّة الأولى التي أشاهد فيها جيشا، فضلا أن أكون فارسا فيه، وكان ذلك الجيش العرمرم يتحرّك في جلبة مهيبة فبدت صفوفه المتراصّة، ما بين فرسان ومشاة، كالبحر الهادر ووراء تلك الحشود أعداد هائلة من الجمال تحمل المؤن والخيم، فيما كانت البغال تجرّ أسرّة المدافع، وخلف الجميع سيقت قطعان الماشية والأبقار المعدّة لطعام الجنود، كانت الأصوات متداخلة، ونقع الغبار يسدّ الآفاق، والكلّ كان يتعهّد سلاحه، وينتظر موعد الوصول إلى وهران بشغف وحماس كبيرين، بعد تلك الكلمات التي ألقاها الباي محمّد على أسماع المقاتلين، حاضّا إياهم على الصّبر، والإقبال على العدوّ بشجاعة الصّحابة رضوان الله عليهم، كان المسمّعون ينقلون كلام الباي

بين صفوف المجاهدين، وفي نفوس هؤلاء يقين بالفتح المبين أمّا أنا فقد بقيت طيلة الطّريق أغالب رغبة طاغية للنّوم، حتّى أنّي كنت أجد نفسي قد غفوت في أحيان كثيرة فوق سرج حصاني، فيجدّد ذلك في نفسي بعض النّشاط، إلى أن وصلنا إلى (سيق) فأمر الباي، بالتوقّف للرّاحة هناك، فنصبت الخيام وتخفّف الجنود من وعثاء السّفر، وبعدها في اليوم الثاني استأنفنا المسير، واقتربنا أكثر من وهران، التي كنّا عند أسوارها في يوم الأربعاء، ولكنّ الباي تردّد في بدء الحرب قبل أن يأخذ الإذن من الدّاي، فآثر أن يبقى في مكانه، ويرسل إلى الجزائر مبعوثه لطلب موافقة الدّاي. كان الباي يعرف نقمة الدّاي، إن هو قام بمهاجمة المدينة دون الرّجوع إليه، فإسبانيا كانت في معاهدة سلام مع دايات الجزائر منذ سنوات، مقابل إتاوات تدفعها كلّ سنة لخزائن المحروسة، وكان الدّايات يشجّعون بايات الإيالة الغربية على محاصرة وهران المرّة بعد المرّة ويتذرّعون للإسبان بأن لا سلطة لهم على أولئك الحكّام المارقين، الذين يتمرّدون على سلطانهم، فكانوا يتحجّجون بذلك حتّى يتخلّى الإسبان عن المدينة والمرسى الكبير طواعية، ومن غير حرب معلنة، ومع انتظار الباي لإجابة الدّاي على طلبه، أرسل مبعوثيه إلى كلّ جهات الإيّالة الغربية، فبدأ يتجمّع حولنا الآلاف من المقاتلين، فجاءت قبائل العرب كفتيلة، وأقبل المقاتلون من

مازونة وتلمسان وأعراب الشّرق والقلعة ومستغانم، حتّى بلغ عددنا الخمسين ألفا. كنت متأكّدا أنّنا لو حملنا على الإسبان بسرعة قبل أن يتواصل مدد أسطولهم لنجدة المدينة، لكان الفتح في المتناول، فقد كان العدوّ في ضعف وقلّة، وكنّا نحن في قوّة وحشد كثير، حتّى أنّنا كنّا نبثّ الرّعب في نفوس أعدائنا باللّيل عندما كنّا نرفع المشاعل، ونلوّح بها عاليا، فيتوهّج ضوء لهيبها على مدّ البصر، ولكنّ الإسبان كانوا أيضا على مكر ودهاء شديدين، فقد حاولوا هم أيضا في الصّباح إيهامنا بأنّ عددهم كبير، فنصبوا هياكل خشبية، وألبسوها لباس الجنود، ثمّ أظهروها على الأسوار والحصون. لم أكن أشكّ أنّ ذلك كان من تدبير صديقي خوسيه، الذي لم أكن أتمنّى مواجهته في الحرب ولكن ماذا لو حدثت المواجهة؟ هكذا كنت أسأل نفسي، فأتذكر ما قاله لي خوسيه في آخر مرّة: (أعلم أنّك سترجع قريبا لمحاربتنا، ويومها ستجدني هنا عند أسوار المدينة للدّفاع عنها وسيقوم كلانا بما يمليه عليه الواجب). حينها كنت أردّد بصوت مسموع: (أجل وسيقوم كلانا بما يمليه عليه الواجب، والواجب يفرض عليّ أن أحرّر أرضي، وأطرد المعتدين عنها، ولو كلّفني ذلك حياتي نفسها. إنّها قضيّتي التي سجنت من أجلها، والقضية التي من أجلها قاتل آل الهلالي، وكلّ مخلص لدينه، وبني جلدته). في تلك المواقف كنت أتمنّى لو كان بيننا أخي أحمد، لأنّي كنت

متأكّدا أنّه سيبلي البلاء الحسن في المعركة، وهو الذي طالما حدّثني عن حربه مع الإسبان.

اقتضت الأوامر أن نكتفي بمناوشة الإسبان قرب أبراجهم ونحاول التسلّل إلى حدائقهم لإفساد ثمارها، فكان البعض يتهوّر، ويخالف أوامر القادة، فيقع تحت نيران مدافعهم القويّة التي كانت تتهاطل علينا كالمطر من الأبراج، ومن السّفن القادمة من المرسى الكبير. كانت الإصابات بالغة في الجهة الشّرقية عند برج العيون، فقد استشهد عنده الكثير من جنودنا، وجاوز عدد جرحانا المئة، وكان أكثرهم من بني زروال، فكنّا نسمّي برج العيون من ذلك اليوم ببرج بني زروال، وعندما تجدّدت المناوشات يوم السّبت كلّف آخرون بالتسلّل ليلا إلى أسفل برج مرجاجو، ووضع لغم متفجّر هناك، وبعد كلّ الجهود التي بذلوها، لحفر نفق صغير يوضع فيه خزّان البارود، فإنّ اللّغم لم ينفجر لقلّة مهارتهم بوضع الفتائل. كلّ ذلك والباي ينتظر ردّ الدّاي الذي تأخّر كثيرا، ممّا جعله يغضب كثيرا، وخاصّة بعد أن كان يرى تكاثر أعداد الإسبان مع وصول المئات من المقاتلين الجدد، في تلك الأيّام، كنت أرى تهافت النّاس على الأموال التي كان يشجّع بها الباي مقاتليه لنزال العدوّ، من دون أن يكون ذلك مجديا في الفتّ من عضده، وهو ما جعله يدرك جيّدا أنّ جيشه لم يكن في الحقيقة مستعدّا بما فيه الكفاية لمواجهة

تلك التحصينات القويّة، فأمر حينها الجيش بالرّجوع إلى معسكر، وإعداد العدّة من جديد، ففتح المدينة كان يتطلّب عتادا، ومدافع كثيرة، وأيادي مهرة لاستعمالها، وفي طريق العودة كنت أسمع البعض يسعون بين صّفوف المقاتلين هامسين بمكر خبيث في آذانهم عن قوّة الإسبان، وأنّ فتحها لا يكون إلّا على يد المهدي المنتظر، فتأكّدت أنّ بين تلك الحشود مندسّين من المغاطيس يعملون بكلّ السّبل لإضعاف عزيمة الجيش، وبوصولنا إلى معسكر لم يقم الباي بتسريح الجنود إلى قبائلهم، حيث ظلّ الجميع ينتظر وصول رسل الدّاي محمّد باشا، وبعد أيّام وصل الإذن من الجزائر، وتحرّكنا من جديد إلى وهران، فكان القسم الأعظم من الجيش يقوده الباي محمّد وقسم مع ابنه عثمان، وقسم ثالث على رأسه صهره محمّد بن إبراهيم، ولدى وصولنا إلى المدينة، وجدنا الأمور أصعب ممّا كانت عليه في المرّة السّابقة، فقد تلاحقت إمدادات العدو طيلة شهر أكتوبر من ذلك العام، وأصبحت قوة نيرانهم أعظم بكثير فرأى الباي أن يرجع إلى معسكر، ويسرّح الجنود إلى قبائلهم ولكنّ الله ألهمه قبل المغادرة أن ينظّم رباطات الجهاد على ثغور المدينة لإحكام الحصار عليها، وهي عادة كانت من أيّام الفتح الأوّل، أن يكون على ثغور المدينة طلبة العلم، فعيّن الباي أميرا على تلك الرّباطات، وكان ذلك الأمير هو العالم الفقيه سيدي

محمّد بن عبد الرّحمن الجلّالي، في ذلك اليوم شعرت بأنّ حلمي قد تبخّر في العودة مظفّرا إلى الجوامع بعدما تمنّعت المدينة من جديد أمام جيشنا، فكاد اليأس أن يتسرّب إلى نفسي لولا سيدي محمّد الجلّالي، الذي رغّبني في الرّباط، وعدّد لي أفضاله العظيمة، فكنت واحدا من أولئك الطلبة المرابطين على جبل المائدة. في البداية كان عددنا قليلا، لم يتجاوز العشرات، وخلال أشهر قليلة تعاظم عدد المرابطين حتّى جاوزت الأعداد الألفين بعد أن منع الباي التّدريس في الزّوايا والمدارس في معسكر، فلم تعد تقام الدّروس إلّا في الرّباطات، وجاء وقتها قاضي معسكر الطّاهر بن حوّا، وأقبل طلبة العلم من كلّ فجّ عميق، وانتشروا في تلك الثّغور، وضربت الأخبية والخيم، ونظّم القادة تلك الأعداد في دواوين، كلّ ديوان يضمّ خمسة وعشرين مرابطا. كانت الجهة التي ضربت فيها الرباطات في جبل المائدة هي مكمن الضّعف الوحيد في دفاعات الإسبان، فقمّة الجبل وطاء منبسط يرتفع قليلا عن قمّة جبل مرجاجو، لا يفصل بينهما إلّا واد ضيّق. ومن ذلك الوطاء الواسع كنّا قادرين على رصد كلّ شاردة وواردة على المدينة، التي كان جبل المائدة يطلّ عليها من الجهة الشّرقية، وأمّا المرسى الكبير فكان في الجهة الغربية منه كانت مهمّتنا الأساسية أن لا نترك أحدا يدخل إلى المدينة أو يخرج منها. كلّ شيء كان تحت أعيننا المترصّدة، وفي مرمى

بنادقنا، فتحوّلت حياة الإسبان إلى جحيم حقيقي، فلم يكونوا قادرين على التحرّك لأبعد من طلقات مدافعهم، وحتّى تلك المحاولات القليلة كان مآلها الفشل الذّريع، فقد كنّا نضع الكمائن، ونختبئ بين الأشجار والأحراش في منحدرات الجبل قرب الأسوار، ومن هناك نطلق نيران بنادقنا، فلا يكاد ينجو منها أحد، في تلك الأيّام شاعت بين المرابطين مهارتي الفائقة في التصويب، فكلّ من كان في جبل المائدة، كان يعرف من هو سليمان الهلالي، حتّى أنّ سيدي محمّد بن عبد الرحمان الجلّالي جعلني قائدا على مجموعة من القنّاصين، فكنت طوال شتاء العام 1791 أضع الخطط المحكمة، وأتسلّل بجنودي كأسود قريون أترصّد طرائدي، ولطالما حاولت أن أستغلّ فترات الضباب الكثيف في تلك المناطق المرتفعة، لأقترب كثيرا من بوابات المدينة، وأشنّ هجومات خاطفة قرب الأسوار، فكبّدنا العدوّ في مدّة قصيرة خسائر فادحة، وقتل من محاربيهم عدد كبير، كما شاء الله أن يستشهد من أولئك المرابطين، الذين كانوا معنا، جمع من الفضلاء، كان من بينهم قاضي معسكر سيدي الطّاهر بن حوا رحمه الله.

لم تكن تلك الرّباطات ساحات للقتال وحسب، بعدما تحوّلت إلى مدارس للعلم والعبادة، وقد انتصب للتّدريس فيها علماء أجلّاء، حتّى إنّ كثيرا من الطّلبة أخذوا إجازاتهم من

هناك، كانت دروس أولئك العلماء تشدّ من عزمنا، وتبثّ فينا مزيدا من الثّبات والشجاعة، وكان سيدي محمّد الجّلالي يقدّمني في المهمّات الصّعبة، ويقرّبني إليه في مجالسه الخاصّة، فقد كنت أعرفه منذ جئت إلى معسكر، وزاد في الودّ بيننا بلائي في الغارات التي كان يكلّفني القيام بها، ومن ثقته الكبيرة بي أنّه أرسلني بعد نحو ثلاثة أشهر إلى الباي محمّد الأكحل لأحمل إليه كتابا عن حالة الرّباط، وحاجات الطّلبة، فوافيته عند إحدى الغابات القريبة من معسكر، يشرف بنفسه على أعمال قطع أشجار البلوط، التي كان يحملها الجنود والمتطوّعون بعد ذلك إلى المدينة من أجل إعداد أسرّة المدافع، وبناء السفائن الصّغيرة، وبعد أن أنهيت مهمّتي، قررت أن أمرّ على معسكر لأسلّم على صديقي قدّور بن عودة، وأستعلم منه إن جاء أحد من الجوامع للسّؤال عنّي، كان ردّه بالنّفي كفيلا أن يرجّح لديّ احتمال يأسهم من بقائي حيّا بعدما انقطعت أخباري عنهم طوال كلّ تلك السّنوات.

بدت لي معسكر في أثناء تلك الزّيارة الخاطفة، مدينة أخرى غير التي تركتها، شيء لا يكاد يصدّقه العقل، فقد تحوّلت إلى مصنع كبير، يصنع فيه كلّ شيء: البنادق والمدافع والقوارب. الكلّ في معسكر كان يعمل، النّساء والرّجال وحتّى الأطفال حدّثني قدّور بن عودة أنّ الباي قام بإرسال مبعوثيه إلى كلّ

مكان. فقد أرسل إلى جبل طارق من يشتري له المدافع الكبيرة وكميات كبيرة من البارود، وأغرى بالمال الكثير الصنّاع المهرة للوفود إلى معسكر، فجاؤوا بالمئات من كلّ مكان؛ وكان منهم الحدّادون والنجّارون والخرّاطون وصنّاع البارود. وحسب قدّور بن عودة، فإنّ كلّ تلك الأموال التي كانت تنفق على أولئك العمّال، والطّعام الذي كان يبذل لهم، ليعدّ من قبيل الأشياء العجيبة، والكرامات الإلهية الباهرة. وعند رجوعي إلى الرّباط سألني سيدي محمّد عن الأخبار في معسكر، فقلت له إنّ الباي يوشك أن يتحرّك إلى وهران في حملة لم يسبق أن رآها أحد من قبل، فاستبشر الحاضرون بساعة الفرج، وبعد أيّام قليلة لاحت بشائر النّصر القريب، فقد طلب الإسبان من الدّاي محمّد باشا أن يسلّموا له مدينة وهران، على أن يحتفظوا بالمرسى الكبير ولمّا رفض الدّاي عرضهم طلبوا هدنة شهر واحد، لا يتعرّض لهم في أثنائها المرابطون، ثمّ أرسلوا مرّة أخرى لإضافة شهر آخر، على أن يسلّموا بعدها كلّ ما في أيديهم للباي، فتوقّفنا عن مناوشاتنا تلك المدّة، ولكنّ الإسبان نقضوا تلك الهدنة، بعد أن أثبت جواسيس الباي أنّ أعدادهم كانت تتضاعف حتى وصلت إلى نحو عشرة آلاف جندي، فسار الباي شهر ماي الذي وافق شهر رمضان، ووصل أرض الرّباط، وكان معه محلة من الجنود الأتراك، فأجزل العطاء للطّلبة، وأحكم خططه، فأنزل قسما

من الجيش مع ابنه عثمان ليحمي ظهر جبل المائدة من هجوم مباغت للإسبان، وكان ذلك الموضع يقال (فيض ابن عطاء) وشرعنا خلال ذلك الشّهر بنصب المتاريس العظيمة في مواجهة جبل مرجاجو، ومع نهاية الشّهر قمنا بجرّ المدافع إلى تلك المتاريس، وأعلنت الحرب، فرميت آلاف الكور من الجانبين فكان صدى دويّها يصمّ الآذان، ودخانها ينعقد في السّماء سحابات رمادية تغشي الأبصار، واشتدّ سعار الحرب في ذلك الصّيف، وكان أكثر خسائرنا من جهة قذائف سفنهم التي كانت تنطلق من المرسى الكبير على بعد ثلاثة أميال، ثمّ تقترب من السّاحل حتّى تحاذي جبل المائدة، ثمّ تبدأ في إطلاق قذائفها المدمّرة، ظلّت الحرب مشتعلة بيننا وبينهم، وكنّا كلّ مرّة نناور بتغيير أماكن المتاريس، فأحرقنا بعض البروج المقابلة لوادي إيفري، وبالجملة لم تهدأ لهم جهة، واشتدّ الهلع في نفوسهم، إلى أن وصلت الرّسل شهر جويلية بنعي الدّاي محمّد باشا، فخشي الجميع أن يأمر الدّاي الجديد حسن باشا بوقف الهجوم، ولكنّ الدّاي الجديد أمر الباي بالجهاد إلى غاية الفتح، وبعد أيّام قليلة تلاحقت رسل الدّاي بأخبار الاتّفاق على الهدنة مع الإسبان، ولم ينته صيف ذلك العام حتّى أبلغ الملك الإسباني الدّاي حسن بتسليمه المدينة ومرسى الكبير، فكانت فرحة لا توصف، وكنت أسعد إنسان على الأرض، حتّى أنّي لم أكن أشعر بأيّ تعب، وأنا

عائد مع جيش الباي إلى معسكر، فقد كنت أحسّ أنّي أمشي فوق أرض غير الأرض، وتحت سماء غير السّماء، أسبح في بحر من السّعادة الغامرة، وأتحرّق شوقا للعودة سريعا إلى معسكر والمضي من هناك نحو الأهل والأحبّة بعد كلّ تلك السنين الأربعة التي قضيتها بعيدا عنهم، ومن يوم وصولي أمضيت بضعة أيّام أنتظر خروج إحدى القوافل إلى قسنطينة، كنت أثناءها أشتري أغراضا كثيرة لآخذها معي إلى الجوامع، حاولت أن لا أنسى أحدا، فأنفقت مبالغ كبيرة حتّى أنّ صديقي قدّور بن عودة كان يلومني كثيرا على ذلك، ويعتبر الأمر نوعا من الإسراف الزّائد، ولكنّه عبثا كان يفعل، فقد كنت أريد أن أحمل بين يدي كلّ الهدايا التي أستطيع حملها، حتّى أدخل الفرحة إلى نفوس الجميع، ولست أنسى حينما دعاني الباي إلى قصره في اليوم الرّابع من عودتنا إلى معسكر، فاستقبلني ببشاشته المعهودة وسألني عن موعد سفري إلى الشّرق. فأخبرته أنّي أنتظر خروج إحدى القوافل إلى قسنطينة لأرافقها، قال لي كلاما لازال محفورا في ذاكرتي: (لقد انتظرت بما فيه الكفاية يا سليمان وأدّيت واجبك على أكمل وجه، وها أنت اليوم قد برّأت ذمتك اتّجاه دينك وأرضك، وسوف لن أتركك تنتظر كثيرا، وسآمر مجموعة من الفرسان بمرافقتك إلى أن تصل إلى قبيلتك) وكم كنت ممتنا للباي محمّد رحمه الله برحمته الواسعة، فقد كان

رجلا عظيما قلّ أن يجود الزّمان بمثله، لم يرض أن أخرج من معسكر، إلّا بعد أن أمر خزنداره بأن يصرف لي مبلغ مئة محبوب ذهبي، وأن يملأ رحلي بالهدايا، من صنوف اللّباس والمتاع، وما كنت طامعا في شيء، ولكنّي كرهت أن أردّ أعطيته فقد كان يكفيني أن أنجاني الله من السّجن، ومدّ في عمري حتّى قرّت عيني بالفتح المبين، فخرجت من أمّ العساكر ذلك اليوم وفؤادي يسابق الأيّام ليعانق الأحبّة، ويشفي لوعة البعد والغربة، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

.08.

كان سليمان مرجاجو يسرد قصّته، والرّايس صالح منتبه يتابع تفاصيل القصّة باهتمام بالغ، حتّى إذا سمعا وقع أقدام متسارعة عند الباب، تحوّلت نظراتهما إلى ناحيته، كان يبدو أنّ صاحب تلك الجلبة هارب من خطر ما، أو يحمل خبرا سيّئا. أسرع الرّايس صالح ليفتح الباب، فوجد أحدهم يخبره أنّ بحّارا من عمّال المناورة سقط من أعلى الصّارية الوسطى بينما كان يحاول فكّ أحد الحبال، كانت أنفاس المتحدّث تسابق كلماته من شدّة الهلع، التفت الرّايس صالح إلى سليمان مرجاجو وكأنّه كان يريد أن يستسمحه للخروج، فقام مرجاجو من مكانه، ورافق الرّايس صالح إلى أعلى السّفينة، فوجدا الرّجل ملقى على الأرض، يصرخ من شدّة الألم، وقد تحلّقت حوله مجموعة كبيرة من البحّارة، كان من بينهم الباش رايس عمر الذي كان يحمل فنارا يتوهّج منه ضوء ساطع، تستبين منه ملامح الرّجل المصاب جيدا، فكان يتلوّى على سطح السّفينة منتحبا، ووجهه مسودّ كقطعة من اللّيل الحالك، وهنا توجّه الرّايس صالح إلى مساعده يأمره بإنزال الرّجل إلى إحدى الغرف ومعالجته. فتقدّم بعض البحّارة، وحاولوا حمل الرّجل، فنبّههم الرّايس صالح أن يرفعوه برفق، فقد كان واضحا أنّ إحدى

رجليه مكسورة. كان سليمان مرجاجو متأثّرا لتأوّهات الرّجل ويرى علامات الحزن في وجوه البحّارة، الذين بدأوا في التفرّق فمنهم من انصرف إلى مهامه على سطح السّفينة، ومنهم من نزل للنّوم، وهو ما حاول سليمان مرجاجو القيام به عندما نزل هو الآخر إلى الغرفة، فوجد نفسه غير قادر على النّوم، فمنظر تحلّق البحّارة مفزوعين حول الرّجل بسحنته القاتمة، ذكّره بموقفين مشابهين حدثا له منذ زمن طويل، كانت الصّور الملحّة تأتي لخياله مزدحمة بكلّ روائح الموت التي ترافقها كأنّها لم تحدث إلّا السّاعة، أمّا الموقف الأوّل، فقد حدث له ولمّا يكن قد بلغ بعد العاشرة من عمره، كان ذلك عندما دخل على أمّه زينب، وهي على فراش الموت، وشمعتان ذاويتان تنتصبان عند رأسها كشاهدي قبر، كانت عيناها متعبتين وتائهتين، وجسمها النّحيل أصبح كراديس من العظام الناتئة، في تلك اللّيلة لم تكن أمّه تتأوّه، فلم يعد للألم مكان في جسمها المكدود، الذي أنهكه المرض لأكثر من شهرين، فظلّت خلالهما كسيحة لا تغادر فراشها. لم يسقط من ذاكرة سليمان مرجاجو أنّهم كانوا خمسة قد تحلّقوا حولها، فكان هو ووالده الحاج محمّد، وأخوه الشّقيق عبد الرّحمن، وأخواه لأبيه أحمد وأم الخير. الكلّ كان ينظر إلى أنفاسها الواهنة، وفي لحظة ما رفعت إحدى يديها وبصوت خفيض أشارت لزوجها أن يقوم بإسنادها، فدنا منها

والده الحاج محمّد، الذي أسندها بمساعدة أم الخير إلى وسادتين، كانت تنظر إلى الجميع واحدا واحدا في لحظة وداع أخير، وبعدها شخصت ببصرها إلى ناحية سقف الخيمة، وكأنّها تفتّش عن شيء ما، وغمغمت بكلام غير مفهوم، ثمّ رفعت سبّابة يمناها، وكرّرت الشّهادتين عدّة مرّات، فما لبثت أن فاضت روحها إلى بارئها. لاحظ مرجاجو أنّه كلّما تذكّر تلك الصور إلّا وغلبته الدّموع. لقد عاش طوال حياته يحمل هموم تلك الذكرى، فرائحة أمّه لم تفارقه أبدا، وصورتها ماثلة بين عينيه لم تطمسها السّنون، تذكّر أيضا أنّ أمّه زينب لم تعش طويلا، فقد ماتت صغيرة لم تبلغ العشرين من عمرها، فخطر في خلده أنّ ابنته التي أسماها باسمها، هي الآن بنفس ذلك العمر تقريبا.

وفي الموقف الآخر تذكّر سليمان مرجاجو زوجته مريم، التي كانت كزهرة بريّة تفتّحت في أرضه القاحلة، بعد أن أفل منها ربيع الأمومة باكرا، فكانت بالنّسبة إليه زوجة وأمّا، ولكنّ تلك الزّهرة شاء الله لها أن ترحل هي الأخرى باكرا. كان سليمان يتمنّى لو أنّ مريم عاشت أكثر، ولكنّها ماتت هي الأخرى بعد يومين عن ولادتها العسيرة، فكانت في موتها توصيه بزينب وتقول له إنّها أمانة في رقبته. وبعد مرور كلّ ذلك الزّمن الطّويل لم يبق من ذكرى مريم في نفس مرجاجو إلّا غصّة حارقة، لأنّه

لم يكن ذلك الأب الذي كان يجب أن يكونه، ولكنّه رغم كلّ شيء كان متأكّدا في قرارة نفسه أنّ زينب ستسامحه يوما ما كما أنّه لم يشكّ أيضا في أنّ مريم لو كان بإمكانها أن تعلم بكلّ ما حدث له لما وسعها إلّا أن تعذره، لأنّه ما قصّر عن واجبه الأبويّ عن تفريط وطيش، فقد حالت بينه وبين زينب صروف الدّهر التي كانت أقوى منهما جميعا، وحتّى عندما حاول أن يعوّضها عن كلّ ما فات، كان الوقت قد تأخّر كثيرا. لازال سليمان مرجاجو يذكر رغم مرور كلّ تلك السّنين الطّويلة أوّل مرّة جاءوا بمريم محمولة على هودج عروسا صغيرة، بعينين واسعتين كحيلتين، وقد زيّنت بحليّ الذّهب والفضّة، فكانت رائحتا المسك والعنبر تتضوّعان من برنسها الأبيض، لم تكن حينها قد بلغت الثالثة عشرة من عمرها، فكانت تبكي بكاء الأطفال لفراق الأهل والأحبّة، وطيلة كلّ تلك السّنوات الثّلاثة التي قضياها معا، لم تلق منه إلّا المودّة وحسن العشرة، فقد كان والده الحاج محمّد يحبّها لطيبتها، ولا يذكر سليمان مرجاجو أنّه قد أساء معاملتها مثلما كان يفعل الكثيرون مع زوجاتهم كانت مريم فتاة محظوظة مقارنة بغيرها من نساء وفتيات القبيلة. فلم يكن أصعب من حياة النّساء في قبيلة الجوامع فهنّ أكثر أفراد القبيلة شقاوة وكدحا، تلك النّسوة اللّائي كنّ يحتطبن ويغزلن الصّوف، ويطحنّ بسواعدهن القمح، ويخطن

ويرقعن الغرائر والمزاود والخيم، ويجلبن الماء من الآبار في صقيع الأشتية الصعبة، ومنهنّ من يأتيها المخاض في أثناء شقائها المتواصل، فتلد في عراء البريّة من دون معين، وبعد أن ترضع وتربّي، لا تجد في الأخير أمامها إلّا سوء المعاملة ونكران الجميل وكم كان مؤلما لسليمان مرجاجو في سهاد تلك اللّيلة الطّويلة أن يتخيّل ابنته زينب، وهي تلقى نفس ذلك المصير التعيس الذي تنتهي إليه نساء القبيلة كالقدر المحتوم. وها هو اليوم كقشّة في مهبّ الرّيح، تعصف به الهواجس، وتحاصره الأسئلة إذ لم يكن طوال الفترة السّابقة قادرا على رؤيتها مرّة أخرى بعد أن تقطّعت السّبل، وظهرت الفتن المدلهمّة في كلّ مكان. كان مرجاجو يحسّ إحساسا عميقا أنّه قد شاخ قبل الأوان وأنّ جسمه الصّلب لم يعد يحتمل المزيد من آلام الرّوح. الشّيء الوحيد الذي كان قادرا أن يخفّف من آلامه، هو أن يسافر في أقرب وقت إلى الجوامع بعد الوصول إلى الجزائر، وتسليم كتاب الباي محمّد المقلّش إلى الدّاي أحمد باشا.

****

في الصّباح، ومع بزوغ شمس اليوم الثّاني عن إبحار سفينة المنصورة من مرسى وهران، صعد سليمان مرجاجو إلى سطحها وفي تفكيره أن يسأل أحدهم عن حالة الرّجل الذّي سقط ليلة أمس من أعلى الصّارية، ولكنّه وجد الجميع منهمكين في

أعمالهم، راوده منظر البحر بلونه الفضّي، فاقترب من حاشية السّفينة، حينها أحسّ برذاذ الأمواج المتكسّرة، الذي كان يتطاير من أسفل السّفينة، فتصيب حبيباته الباردة وجهه الأسمر. لبث نحو ربع ساعة ينظر إلى البحر، ويمدّ بصره إلى السّاحل الذي لم يكن يبعد إلّا ببضعة أميال، ومن تلك النّقطة التي كان موجودا فيها، كان يرى هناك أسرابا من النّوارس البيضاء تفرد أجنحتها المخطّطة بالسّواد عند الأطراف، ويسمع أصواتها الصّاخبة لاحظ أنّ بعضها كان يهوي بانسيابية فاتنة حتّى يصل إلى تلك المويجات الصغيرة برغواتها الصّابونية المتناثرة على طول الشّاطئ الممتدّ. ولكنّه سرعان ما شرد بتفكيره، إلى تلك الأحلام المفزعة التي عكّرت نومه في اللّيلة السّابقة، فكانت صورها الفظيعة والمقزّزة تهجم عليه كلّما أخذته إغفاءة عابرة، كان يرى نفسه مطاردا بمئات من الأجساد التي لا رؤوس لها، حتّى وصل عند ساحل بحر متلاطم الأمواج، فوجده ذا لون أحمر قان، لم يكن يريد الخوض في ذلك البحر الدّموي، ولكنّ الأجساد التي لا رؤوس لها واصلت زحفها الحثيث نحوه، كانت بعض الجثث تحمل رؤوسها بين أيديها، فيما تدحرجت رؤوس أخرى معفّرة بالأتربة من منحدر إحدى التّلال القريبة إلى السّاحل، شعر في حلمه المروّع أنّ تلك الأجساد الغريبة كانت تريد الإمساك به والانتقام منه، وأنّه كان محاصرا بينها، وبين

لجج الدّماء، وفي الأثناء تناهى إلى سمعه عدو حوافر خيل من قمّة تلك التّلة التي كانت تدحرج منها الرّؤوس، وأطلّ على إثرها جيش عرمرم، حيث كان الجنود يرفعون رؤوسا أخرى على أسنّة رماحهم، ويلاحقون بسيوفهم المصلتة الجثث الهاربة، وفجأة خيّم ظلام اللّيل البهيم على المكان، فلم يعد يرى شيء وارتجّت السّماء بالصّراخ... وبينما كان سليمان مرجاجو مستغرقا في كوابيسه المروّعة، أحسّ أنّ أحدهم يضع كفّ يده على ظهره فالتفت فإذا هو الباش رايس عمر الذي ألقى عليه التحيّة فأخبره مرجاجو بفتور أنّه كان يريد أن يسأل أحدهم عن حال الرّجل الذي سقط بالأمس، فطمأنه باش رايس عمر، وقال له إنّه الآن بحالة جيدة، بعد أن أسعفوه وقاموا بوضع جبيرة في قدمه المكسورة، وهنا عرض الباش رايس عمر على سليمان مرجاجو أن يرافقه إلى منصّة القيادة، ويتجاذبا أطراف الحديث بدلا من البقاء لوحده في ذلك المكان، كان باش رايس عمر رجلا ثلاثينيا قصيرا، ولكنّه مع ذلك كان ذا بنية قويّة، وعضلات مفتولة، ومن وجهه الأبيض المدوّر ينتصب شارب طويل معقوف إلى الأعلى كشارب الرّايس صالح. أخذ الباش رايس عمر عن أحد البحّارة عجلة القيادة، وأمر بإحضار مقعد لسليمان مرجاجو فجلس الأخير إلى جوار البحّار، وأنصت لحديثه الماتع، فاكتشف من خلاله ظرافة الباش رايس عمر، وخفّة روحه، وقد علم أنّ

أصله من جبال زواوة، وأنّه رحل صغيرا إلى الجزائر مع والديه وبعد وفاة والده هو الآن المعيل الوحيد لعائلة كبيرة، فيها أمه وإخوته الصّغار، وزوجته وأبناؤه. وبعد أن سكت الباش رايس عمر، وخيّمت لحظات من الصّمت المكان سأل سليمان مرجاجو مساعد ربّان السّفينة:

. هل لا زلنا بعيدين عن المحروسة؟

. إذا سارت الأمور على ما يرام، وأسعفتنا الرّياح الغربية فسنكون في الجزائر بعد يومين.

. يبدو لي سيّد مرجاجو أنّك مستعجل للوصول إلى الجزائر؟

. أكثر ممّا تتصوّر.

. لا شكّ أنّك زرتها من قبل؟

. مرّة واحدة، وكان ذلك قبل نحو تسع سنين، برفقة الباي محمّد بن عثمان الأكحل.

. ألم تكن هي الزّيارة التي مات فيها الباي محمّد الأكحل في طريق عودته إلى وهران.

. بلى.

وهنا التفت باش رايس عمر إلى سليمان مرجاجو، وواصل كلامه بصوت خفيض، وكأنّه يخشى أن يسمعه أحد:

. يقال إنّهم دسّوا له من وضع له السمّ ليتخلصوا منه، بعد أن أحسّوا بقوّة شوكته، وتعاظم نفوذه خاصّة بعد فتح وهران.

لاحظ سليمان مرجاجو أنّ محدّثه كان يتكلّم بتلقائية كبيرة ولا يبدو أنّه كان متحفّظا أو خائفا، وهو يكلّم رجلا غريبا عنه وقريبا من بلاطات الحكّام، ولكنّ الأمر لم يكن غريبا بالنّسبة لمرجاجو الذي أصبح معتادا طيلة السّنوات الماضية على سماع نبرة التذمّر تلك في كلام كثير من النّاس، وحتّى الباش رايس عمر كان يحسّ أنّه يكلّم رجلا بسيطا في تعامله مع الآخرين، ولا يحمل صلافة وغطرسة أصحاب النّفوذ المتعالين.

. لازال موته غامضا إلى اليوم، ولكنّ الأحداث التي تلت موته تجعل كلّ التّخمينات قابلة للتصديق، فالمتنافسون على المناصب كثيرون، وهم يشترونها بالأموال العظيمة التي يحصّلونها بكلّ طرق الجشع التي لا حدود لها، وقد لاحظت ذلك بنفسي خلال إقامتنا القصيرة بالجزائر أثناء رحلة الدنّوش تلك.

. رحلة الدنّوش.. آه يا سيّد مرجاجو! النّاس في الجزائر لا ينتظرون إلّا عوائد الدّنوش التي يؤدّيها البايات كلّ ثلاث سنوات إلى المحروسة، فتجد وقتها حشود النّاس مصطفّة في الطّرقات من باب الرّبط إلى قصر الجنينة. الكلّ يتلهفّ للمال الذي ينثره البايات على رؤوسهم، صناديق من الضلبونات والدّراهم التي توزّعها تلك المواكب الفخمة، ولكنّ النّصيب الأكبر دائما يأخذه الوزراء، وكبار الجند وقادتهم، حيث بريق السّلطاني والمحبوب الذّهبيين، والهدايا الثّمينة من الجواهر واليواقيت، والعبيد

وأكسية الحرير والدّيباج. وإذا فشل واحد من البايات الثلاثة في إرضاء نهم أولئك الجشعين خلال الأيّام الثمانية التي يقضيها في الجزائر، فإنّهم يتخلّصون منه حتّى قبل أن يعود إلى مقرّ حكمه. إنّها الأموال التي يستخلصها البايات بعد ذلك من التّجّار والفلّاحين، والرحّل الكادحين في أقاصي البلاد بقوّة الحديد والنّار.

. وكيف هي الأحوال في الجزائر منذ تولي الدّاي أحمد باشا الحكم؟.

. هي الآن مستقرّة، ولكن لا أحد بإمكانه أن يتوقّع ما سيحدث، فالأمور غامضة في قصر الجنينة. قبل سنتين كان كلّ شيء على ما يرام، قبل أن تنقلب الأمور فجأة، بعد أن قتل أحد الجنود الأتراك بوجناح اليهودي، الذي كان أهل المحروسة يسمّونه ملك الجزائر، ويعتبرونه السّبب الأكبر في انتشار المجاعات وارتفاع أسعار الحبوب، التي كان يحتكر تصديرها هو وشريكه بكري إلى فرنسا بتواطؤ من الدّاي والخزناجي السّابقين فاشتعلت الجزائر، وحلّ النّهب في الحيّ اليهودي، لينتهي ذلك بحصار اليولداش الثّائرين لقصر الدّاي مصطفى باشا، الذي فرّ مع خزناجيه إلى ضريح سيدي ولي دادة العجمي ليحتميا بين جدرانه، فقد كان هو المكان الوحيد المحصّن من اقتحامات الجنود الأتراك الذين درجوا على تعظيم أضرحة الأولياء

ولكنّهما وجدا الثّائرين قد سبقوهما إلى غلق الزّاوية، وكان الذي كان، فقتل الدّاي عند أحد الأفران بعدما ولّى هاربا، ولقي خزناجيه المصير الأسود ذاته بالقرب من جامع كتشاوة.

وفي لحظة ما، وبينما كان الباش رايس عمر يتكلّم، شرد مرجاجو بتفكيره، وبدا مهموما بشيء ما عكّر مزاجه، حتّى نبّهه توقّف محدّثه عن الكلام، لقد أصبح، ومنذ مدّة طويلة، يعاني من حالات شرود مزمن، ممّا كان يسبّب له حرجا مع جلسائه في كثير من المواقف، وخاصّة حينما يطلبون منه أن يبدي رأيه فيما يقولون. حاول مرجاجو أن يغيّر دفّة الحديث:

. وأين الرّايس صالح؟

. بقي صاحيا إلى ساعة الفجر، ولم يغادر سطح السّفينة إلّا بعد أن أخذت مكانه، من المؤكّد أنّه لن يتأخر كثيرا في العودة بعد أن يأخذ قسطا كافيا من الرّاحة والنّوم.

. إنّه رجلّ مميّز، وفي غاية اللّباقة.

. لأجل ذلك كلّ بحّارة السّفينة يحبّون الرّايس صالح، وهو من القلّة الذين ارتقوا إلى تلك المكانة بكفاءتهم وحسن بلائهم. كما أنّ له سمعة طيّبة بين ريّاس البحر، وكلمته مسموعة بينهم.

. وستصبح أنت أيضا واحدا من أولئك الريّاس الأكفاء في يوم من الأيّام.

. الأمور صعبة سيّد سليمان. في الجزائر الكفاءة وحدها لا تكفي هذه الأيّام، فإذا لم تقدّم الرّشاوى الكثيرة، والهدايا الثّمينة لكبار المتنفّذين، فستبقى كما أنت، وخاصّة إذا لم تكن تركيا أو واحدا من العلوج الذين أسلموا، فسيضعون أمامك الحواجز لتبقى دائما تحت سلطانهم.

. أليس الرّايس حميدو اليوم هو أعظم رياس البحر في الجزائر، واسمه يبثّ الرّعب في كلّ بلدان البحر المتوسّط؟! ومع ذلك هو واحد من السكّان الأصليين.

. الرّايس حميدو لو بقي في الجزائر لما وصل إلى ما وصل إليه اليوم، فلولا رحيله إلى وهران، ووجود رجل عظيم كالباي محمّد بن عثمان الكردي، الذي وثق فيه كثيرا، وأعطاه قيادة سفنه لكان اليوم باش رايس مثلي في أحسن الأحوال. الرّايس حميدو عندما عاد إلى الجزائر كانت مآثره قد سبقت وصوله. في السّابق كان أغلب رياس البحر من سكان البلاد، ولكنّ عددهم اليوم قليل جدّا، وكما قلت لك سيّد مرجاجو قواعد اللّعبة واضحة. هذه هي الحقيقة.

كان الحديث مع الباش رايس عمر يشعر سليمان مرجاجو بأنّ الوقت يمضي سريعا، وهو يسمع قصص مغامرات محدّثه في عرض البحر، والتي لا تقلّ عن مغامرات رئيسه الرّايس صالح، ففكّر أنّ عيش مثل هؤلاء في البحر، ومخالطتهم للأجانب

أكسبهم رجاحة في العقول، وشجاعة في التّعبير عن مشاعرهم تضارع شجاعة مواجهة أخطار العيش في ذلك البساط الممتدّ.

ومع مرور الوقت، وعدم عودة الرّايس صالح، قرّر سليمان مرجاجو أن ينزل إلى غرفته عند الظّهيرة، ولكنّه لمّا عاد في المساء علم أنّ الربّان مريض، فتوجّه إليه ليعوده، فوجده يعاني من صداع قد ألمّ به، غير أنّه قد أخذ بعض الأدوية النّافعة، التي شعر معها ببعض التحسّن، وقبل أن يخرج مرجاجو من حجرة الرّايس صالح أخذ منه الأخير وعدا بأن يكمل له بقيّة القّصة لاحقا، وابتسامة لطيفة مرسومة على صفحة وجهه.

.09.

مع غبش فجر اليوم الرّابع، كان مرجاجو على سطح السّفينة ليرى من بعيد ضوء الفنار الذي يلوح من برج ميناء المحروسة كنجمة مضيئة في السّماء. كانت السّفينة تتقدّم ببطء، لتوافي الميناء مع خيوط الصّباح الأولى. لقد بقي إلى وقت متأخّر من ليلة الأمس مع الرّايس صالح الذي جاء إلى غرفته، بعدما تحسّنت حالته. كان يريد من مرجاجو أن يكمل له قصّة حياته فكانت ساعة من المكاشفة التي امتزجت فيها عواطف مرجاجو المتأجّجة، وهو يسرد انتصاراته وانكساراته، بمشاعر التّقدير التي كان يكنّها الرّايس صالح لمحدّثه، فأحّس مرجاجو في أثنائها أنّه يعرف الرّايس صالح منذ زمن بعيد، وأنّه يمكن أن تجمعه به صداقة متينة في المستقبل القريب.

بعد نحو ساعتين من الإبحار كانت سفينة المنصورة تتقدّم وملامح المدينة البيضاء المنبسطة على هضبة خضراء تبدأ بالظّهور بشكل واضح. فكانت بناياتها تتدرّج نزولا من قمّة الهضبة إلى أسفل الميناء، فتبدو في مجموعها كسيّدة تجلس متلفّعة بالبياض لتتكسّر عند قدميها أمواج البحر، كما أنّ صورتها في ذلك اليوم بدت له مختلفة عمّا رآه قبل سنوات طويلة، عندما دخلها في موكب الباي محمّد الأكحل برّا من باب

عزّون. فكانت هذه المرّة في عيني سليمان مرجاجو مدينة تجلّلها مهابة خفيّة، ويكتنفها سحر غامض. وعندما أوشكت السّفينة على الاقتراب من الميناء قامت المدافع بتحيتها ببضع طلقات مدويّة. كان الميناء مكتظّا بالزّوارق والفرقاطات والسّفن بكلّ أحجامها. فتقدّم واحد من تلك الزّوارق الكثيرة إلى السّفينة ونزل فيه الرّايس صالح، ونزل معه سليمان مرجاجو، وانطلق بهما المجذفون نحو رصيف الميناء، حيث وجدا ضابط الميناء في انتظارهما هناك، وبعد أن صافحهما، قام بمرافقتهما إلى بناية البحرية، حيث كان يوجد مقرّ وكيل الحرج، الذي ارتشفا معه فناجين من القهوة، ثمّ أمر الوزير بعض جنوده اليولداش بمرافقة صاحب البريد إلى قصر الجنينة، وقبل أن يغادر مرجاجو المكان ودّع صديقه الجديد الرّايس صالح، وسلك مع الجنود الطّريق الحجري الذي يفضي إلى السّوق الكبير الممتدّ من باب عزّون إلى غاية باب الوادي، كانت حركة المارّة في ازدياد والدّكاكين بدأت تفتح أبوابها أمام الزّبائن، والباعة المتجوّلون يذرعون الشّوارع بأصواتهم الصّاخبة. كلّ أنواع الدّواب كانت تجول في السّوق: الجمال والبغال والحمير، بعد أن فتح أمامها باب عزّون المفضي إلى المناطق الدّاخلية للبلاد، وهي محمّلة بأنواع البضائع والسّلع. كان سليمان مرجاجو يعرف هذا السّوق جيّدا، ويعرف زحمته، حتّى أنّ جنود اليولداش الذين كانوا

يرافقونه أخذوا يفسحون الطّريق أمام مرجاجو بمؤخّرات بنادقهم، كان السّوق الكبير يمرّ ما بين مسجد السيّدة، وقصر الجنينة الذي ظهر أمام مرجاجو بلونه الأبيض الجيري النّاصع وفي قمّته الرّاية المرفرفة، وإلى جانبها قنديل ذو حجم كبير يتدلّى من سلسلة ضخمة، وشيئا فشيئا ظهرت البوابة الرئيسية، التي انتصب عندها حرّاس النّوبجية بأزيائهم الملوّنة، كانوا يقفون هناك كأوتاد الأرض بحرابهم وبنادقهم. (لم يتغيّر شيء) هكذا قال مرجاجو في نفسه، فلا زالت النّافورة ذاتها في وسط السّاحة المقابلة للقصر، وإلى جوارها شجرة العنب الكبيرة، التي ينفذ عندها مساعدو مزوار العرب الإعدامات على الملأ، ويطرح هناك العصاة والمخالفون أرضا لتلهب أرجلهم العصي بعد الظّهيرة. لم يخامر مرجاجو شكّ أنّ مكتب المزوار لازال هو الآخر في مكانه بجانب مكاتب الوزراء وكبار العمّال حول قصر الجنينة.

وعندما وصلوا إلى بوابة الدّخول تأخّر الجنود اليولداش وتقدّم مرجاجو، فأخذ آغا النّوبجية صاحب البريد إلى مكتب الخزناجي، ومنه إلى غرفة العرش، حيث كان أحمد باشا جالسا في أبّهة وفخامة لم ير سليمان مرجاجو مثلهما من قبل، كان الدّاي يضع على كتفيه رداء من الحرير الأحمر مزيّنا بخيوط ذهبية، وتحته صدرية سوداء من القفطان مزخرفة بخيوط فضّية، فيما كان رأسه متوّجا بعمامة بنيّة اللّون فوقها ريشة

نعام طويلة، ووقف إلى يمين عرش الدّاي أحد الكتّاب المعروفين بعمائهم البيضاء المبرّجة والضّخمة.

أخذ الدّاي أحمد باشا الكتاب من الخزناجي، وبعد أن قرأ الكتاب مدّة من الزّمن، صعّد نظره إلى مرجاجو، ثمّ قال وهو يعبث بأصابع إحدى يديه لحيته السّوداء الكثّة التي وخطها شيء من بياض المشيب:

. عظيم! الباي محمّد بن محمّد الأكحل لا تأتينا منه إلّا الأخبار المطمئنة. لقد نجح في هزيمة ابن الشّريف الدّرقاوي والقبائل المتمرّدة معه، وهو الآن يتعقّب فلولهم في كلّ مكان ولكنّنا لن نرتاح أبدا حتّى يقضى على زعيمهم، ونقتلع جذور تلك الحثالة إلى الأبد. ثمّ رفع الكتاب بيده، وأحكم قبضته عليه، وعيناه محمرّتان تقدحان شررا، وواصل بنبرة المغضب:

. إنّه يكفّرنا، ويبثّ الرّعب بين النّاس، ويقطّع السّبل، ثمّ يدّعي أنّه المهدي المنتظر. لقد روّع الآمنين، فهجر النّاس أراضيهم، وتركوا فلاحتهم وأراضيهم، فعزّ القوت، وحلّت المجاعات حتّى شرب النّاس دماء البهائم وأكلوا أوراق الشّجر ومات الآلاف منهم، أهذا هو الإسلام؟!

ثمّ أنزل يده، وحاول أن يرجع إلى هدوئه، وأردف سائلا مرجاجو:

. هل كنت معهم في ساحات تلك المعارك؟

. كنت في وهران سيدي، وقد أرسل الباي إليّ بهذا الكتاب مع جنود المحلّة لأبلغه لجنابكم.

. ومتّى سترجع إلى وهران؟

وهنا شعر سليمان مرجاجو بتسارع في نبضات قلبه، فقد استشعر من كلام الدّاي أنّه كان يريد منه العودة إلى وهران من جديد.

. أنا يا سيدي في طريقي إلى بايلك قسنطينة لزيارة أهلي، فقد انقطعت عنّي أخبارهم منذ سنوات طويلة. هذا إذا أذن لي جنابكم.

. أعرف أنّك مكلّف بمهمّة من الباي، وأنّك لست الباش سيّار الذي ذكر الباي في كتابه أنّه كان مريضا، ولا يستطيع السّفر ولكنّي أريدك أن تبقى هنا في الجزائر حتّى أرسل في طلبك لتحمل في طريقك كتابا منّي إلى باي قسنطينة، ومنه تستطيع الذّهاب إلى زيارة أقاربك.

أحسّ مرجاجو كأنّ جبلا قد انزاح عن ظهره، فلو أنّ الدّاي قرّر أن يرسله مرّة أخرى بالبريد إلى وهران، لما كان في مقدوره أن يرفض ذلك، رغم أنّه لم يعد قادرا على تقبّل فكرة العودة من جديد إلى وهران، كان يعتقد جازما أنّه على وشك الجنون إن هو تأخّر كثيرا عن زيارة أهله هذه المرّة، فضلا أنّه قد باع جلّ أملاكه في وهران، وأوصى صديقه قدّور بن عودة أن يوافيه بما

بقي من الأموال إلى الجزائر، ومعها صناديق كتبه في أقرب وقت لأنّه قرّر الاستقرار نهائيا في المحروسة بمجرّد أن يعود من رحلته إلى الشّرق.

خرج مرجاجو من قصر الجنينة برفقة أحد موظّفي القصر الذي كان مكلّفا من قبل الخزناجي بأن يوصل صاحب البريد إلى مقرّ إقامته، التي سيمكث فيها إلى غاية أن يرسل الدّاي في طلبه مرّة أخرى. كان ذلك البيت موجودا عند ناصية مدخل زقاق ضيّق خلف قصر الجنينة، فلم يكن يفصله عنه إلّا جامع كتشاوة. أعطى موظّف القصر المفاتيح لمرجاجو، وأكّد أنّه سيرسل له بعد حين من يقوم بخدمته طوال مدّة إقامته في الجزائر. دخل مرجاجو البيت، الذي كان يشبه القصر، ومشى في ردهته التي كانت تفضي إلى باحة مربّعة ذات أعمدة رخامية كانت الغرف موزّعة على طابقين، وتطلّ جميعها على تلك الباحة المفتوحة على زرقة السّماء. تقدّم مرجاجو بضع خطوات حتّى كان في وسط السّاحة، حيث انتصبت نافورة يترقرق منها ماء زلال، وحولها نباتات عطرية مغروسة في أصص من الفخّار وفي زوايا البيت وضعت أواني كبيرة صنعت من النّحاس الأحمر. تذكّر مرجاجو أنّه قد نزل في بيت مشابه في السّنة التي جاء فيها إلى الجزائر مع الباي محمّد بن عثمان، وقد سمع وقتها أنّ البيوت في المحروسة مبنية كلّها بهندسة واحدة، وأنّ الاختلافات

القليلة الموجودة بينها إنّما تعود إلى نوعية المواد التي بنيت بها تلك العمائر؛ من أنواع الرّخام والزلّيج، وأشكال الزّخرفة التي تتّخذ لتزيين السّقوف، وبينما كان مرجاجو يتأمّل في جمال هندسة البيت وفخامته، سمع أحدهم يقرع الباب بتلك الحلقة المعدنية التي رآها مثبتة في أعلاه قبل أن يدخل. كان ذلك هو الخادم الذي أرسله موظّف القصر، وكان شابّا صغيرا في السنّ ذا ملامح أوربية، ويرافقه خادمان زنجيان يحملان معهما أكياسا من الخضر واللّحم، وكميّة كبيرة من الفحم. أذن مرجاجو للجميع بالدّخول، فوضع الزنجيان ما بأيديهما ثمّ خرجا، وبقي الشّاب الذي أعانه سليمان مرجاجو على حمل تلك الأكياس إلى المطبخ، وأخبره بأنّه يريد الخروج إلى المدينة لشراء بعض الأغراض ثمّ يعود بعدها لاحقا للغداء. ولمّا كان سليمان مرجاجو يعرف أنّ المحروسة مدينة كبيرة، وأزقتها مصرانية، وشديدة الضّيق، فقد قرّر أن لا يتحرّك إلّا في المساحات التي يعرفها جيّدا، كان أول شيء يجب عليه أن يفعله، هو أن يذهب إلى أحد الصرّافين اليهود المنتشرين على طول الزّقاق المجاور لجامع كتشاوة، وبحذر شديد استخرج قطعتين ذهبيتين، وقدّمهما إلى أقرب صرّاف. وكان كهلا يلبس لباسا أسود كسائر اليهود في المحروسة، وبعد أن أخذ منه مقابل تلك القطعتين من الدّراهم الفضّية، نزل مرجاجو إلى السّوق الكبير ليشتري بعض الأغراض

التي سيأخذها معه هدايا إلى أهله في الجوامع. كان السّوق مكتظّا عن آخره، وهو ما دفع سليمان مرجاجو أن يحترس جيّدا، فقد خشي أن يستغفله أحد اللّصوص، وتمتد يده إلى الصرّتين المملوءتين بالذّهب السّلطاني، وزادت تلك الخشية بعد أن أحسّ أنّ أحدا يراقبه، ولكنّ مرجاجو لم يكن بوسعه أن يميّز هوية الشّخص خلال ذلك الزّحام الخانق، فقرّر أن يؤجّل شراء تلك الهدايا، ويعجّل في المهمّة الأخرى التي خرج من أجلها، فتوجّه رأسا إلى ساحة الباتستان التي يعرض فيها الأسرى للبيع، حيث بقي يتذكّر جيّدا مكان دكان وكيل أملاك المسجد الذي وصل عنده، فوجده محاطا بالحرس، فدخل إلى هناك ولم يخرج إلّا بعد أن أودع عند الوكيل جلّ المال الذي كان معه مقابل الحصول على ورقة مختومة بالمبلغ المودع. لم يشأ مرجاجو أن يبقي معه غير صرّة صغيرة، بها عشرون قطعة ذهبية، وكان هذا في حدّ ذاته مبلغا كبيرا، بل ويفضل عن حاجته حتّى يقرّر ما سيفعله بعد عودته من الجوامع. عاد سليمان إلى السّوق الكبير بعد أن اطمأنّ على ماله، فلم يكن في المحروسة مكان أكثر أمنا من دكّان الوكيل الذي يعتبر مكانا مقدّسا، لا تطاله أيدي السّوء، وقد درج المسافرون والواقفون على أموال اليتامى، وحتّى أولئك الذين يخافون سطوة اللّصوص أن يودعوا أموالهم، التي يمكنهم استرجاعها أو

الإضافة إليها كلّما دعت الحاجة. كان سليمان مرجاجو ينفق بسخاء في السّوق، حتّى أوشك أن يكمل كلّ النقود التي لم يبق منها في جيبه إلّا مبلغ زهيد، فقرّر أن يعطيها للحمّال الذي سينقل معه تلك الأغراض الكثيرة إلى البيت، ولكنّه في طريق العودة لاحظ بإحساسه الحاد أنّ ثمّة من كان يتعقّب آثاره وإن لم يتسن له معرفة ملامحه جيّدا.

في البيت، وقبل أن يقدّم الخادم الغداء إلى مرجاجو، أخبره أنّ رجلا يدعى الباش رايس عمر جاء ليسأل عنه، وقال إنّه سيعود لاحقا لزيارته. سأل مرجاجو نفسه حينها إن كان الباش رايس عمر هو ذلك الرّجل الذي كان يتعقّبه في السّوق، ولكن سرعان ما بدا له السّؤال سخيفا، إذ كان حريّا به أن يسأل نفسه: كيف حصل الباش رايس عمر على عنوان إقامته بدلا من التّفكير في شيء آخر. ظلّ سليمان مرجاجو ينتظر عودة الباش رايس إلى المساء، وبعد مغيب شمس ذلك اليوم تأكّد أنّه لن يعود إلّا في صباح الغد، لأنّ مرجاجو كان يعلم أنّ الخروج إلى الأزقّة ممنوع بعد إغلاق أبواب المحروسة، وأنّ من يضبطه المزوار وأعوانه خارجا باللّيل من دون أن يكون حاملا لفنار، وفي غير حاجة ملحّة، فإنّ مصيره أن يثبّت إلى الأرض، ويتحمّل بعدها عشرات الضّربات من الهراوات الثّقيلة على رجليه.

كانت ليلة باردة، والسّحب المنعقدة قد حجبت نجوم السّماء الجميلة، فلم يشعر مرجاجو برغبة في البقاء طويلا عند النّافورة، فحمل الفنار الذي أوقده الخادم قبل أن يغادر إلى النّوم، وصعد هو الآخر إلى الطّابق الأعلى حيث وجد في الغرفة المعدّة له فراشا وأغطية جيّدة، تمدّد هناك، وأخذ يفكّر في موعد سفره إلى الجوامع، وسأل نفسه: إن كان الدّاي أحمد باشا سيتأخّر كثيرا قبل أن يرسل في طلبه ليحمل كتابه إلى باي قسنطينة، فحالة الجوّ بعثت في نفسه الخوف من أن يتأخّر ذلك الموعد أيّاما أخرى، لأنّ السّفن لا تبحر في الأجواء العاصفة، وفي لحظة ما بدا لمرجاجو أنّ هذا الانتظار أبديّ، وأنّ الزّمن يتحرّك بطيئا: أبطأ حتّى من أيّام سجنه في وهران، فمنذ سنوات طويلة لم يكن موعد سفره إلى الشّرق يقترب إلّا ليبتعد من جديد، وانتابه إحساس غريب أنّ حياته أصبحت تشبه ذلك القنديل الذي كان ماثلا أمامه، وهو معلّق في نقطة ما، يكافح الزّمن ليبقى متوهّجا، ولكنّه مع ذلك كان يذوي مع كلّ لحظة. ولأنّ شعورا مماثلا بالضّعف كان يزعج مرجاجو، فقد راح يلوم نفسه على نفاد صبره، وضعف إيمانه، وجدّد دعاءه بالفرج القريب، والعودة إلى لقاء زينب وأحمد وعبد الرحمن وخالد وأم الخير والبقيّة، فتخيّل نفسه يحتضنهم جميعا تماما كما فعل في تلك الزّيارات التي كان يؤدّيها إلى الجوامع قبل أن تنقطع منذ

سبع سنين، كانت صور تلك الزّيارات تأتيه دافئة وحانية من أقاصي الذّاكرة، ولكنّ الزّيارة التي أعقبت خروجه من السّجن بعد أن منّ الله عليهم بفتح وهران، هي التي ظلّت راسخة في خياله وفي أعماق روحه، ومن تلك الأغوار السّحيقة، كان يأتيه كلّ ذلك الإحساس الجارف.

****

كان وصولهم إلى الجوامع صباح سبت مشمس بعد أن قضوا نحو اثني عشر يوما من السّفر، الذي لم يتوقّفوا خلاله إلّا للمبيت عند القبائل التي كان يتسابق وجهاؤها لاستضافتهم وتزويدهم بالطّعام والمؤونة، كان يرافقه عشرة من الجنود المسلّحين، ولم يشعر خلال مدّة سفره بأيّ خطر، فقطّاع الطّرق لا يتصيّدون إلّا الطّرائد الضّعيفة، أمّا جنود المحلّة وفرسان قبائل المخزن، فإنّهم مسلّحون جيّدا، وعقاب من يتعرّض لهم يكون مضاعفا من قبل الحكّام. كان يرى مضارب الجوامع من تلّة عالية، حيث لاحت خيمها السّوداء من بعيد في ذلك السّهل الواسع عند سفح جبل قريون، وغير بعيد عنها ظهر الوادي الكبير كخطّ طويل متعرّج يختفي في الغابة التي تبعد نحو خمسة أميال عن القبيلة، كان منظر الحصائد الممتدّة يشي بموسم وافر الخير قد حلّ بالقبيلة، وكانت دقّات قلبه تزداد سرعة كلّما تقدّموا في المسير. كلّ شيء كانت ترصده عيناه، إلّا

ويؤجّج في نفسه الشّوق أكثر فأكثر، حتّى الأصوات كان لها وقع خاص في نفسه؛ صهيل الخيول، وثغاء الأغنام، وخوار الأبقار صيحات الأطفال الذين كانوا يجرون شبه عراة، وصفير الرّعاء على مواشيهم، ومنظر النّسوة اللّائي كنّ يضعن على ظهورهن الحطب ويسرعن به للخيام، كان يسأل نفسه عندما رأى تجمّع الرجال لاستطلاع موكب الغرباء القادمين، أين كان يقف والده وإخوته من بين أولئك المتجمّعين؟ وهل سيتعرّفون عليه عند أوّل نظرة؟ وأين هي زينب؟ أكانت بين أولئك الأطفال الذين كانوا يلعبون؟ لا شكّ أنّهم كانوا قد يئسوا من عودته، وأنّ وقع المفاجأة سيكون عليهم كبيرا؟ وهذا الذي كان، فما إن ترجّل سليمان عن جواده، ورأى الجميع مشيته وطوله الفارع حتّى انطلقت الصّيحات المجلجلة من حناجرهم، وكأنّه الآن يسمع صوت أخيه أحمد، الذي كان أوّل من عرفه: (هذا سليمان.. سليمان.. قلت لكم إنّه سليمان) ثمّ تلا ذلك التّكبير، وزغاريد النّساء المدوّية، لم يملك ساعتها إلّا أن بكى، بكى كما لم يبك مرّة في حياته، حتّى اخضلّت لحيته، وعندها احتضنته صدور الأحبّة جميعا، ولكنّه لم يكن يرى مع المستقبلين والمهنّئين والده الحاج محمّد، فقد كان يفتقد رائحته المعطّرة بريح المسك من جميع تلك الصّدور التي احتضنته. سألهم بلوعة المشتاق وحرقة من أضاع تلك الرّيح الطيّبة، طيبة الذّكر والقرآن

العظيم: (أين الحاج محمّد؟... أين أبي؟... قلت لكم: أين هو الحاج محمّد؟) تطلّع في وجه أخيه أحمد، وفي وجه أخيه الأصغر عبد الرّحمن، فرأى رؤوسهم المنكّسة، وعيونهم الدّامعة، فعرف لحظتها أنّ الموت قد كان هناك، وأنّ الفارس قد ترجّل، فلن يعود بوسعه أن يرى صاحب اللّحية الفضّية من جديد، كانت فرحة مخنوقة، ولكنّه لم يشأ يومها أن يلحّ عليهما في السّؤال بعد كلّ الحزن الذي قرأه في وجهيهما، فلقد فهم كلّ شيء، ولكنّه قبل أن يتحرّك من مكانه سأل عن زينب والبقيّة فقالوا له إنّهم جميعا بخير. ترك أخاه أحمد مع الضّيوف في الخيمة، حيث أمر الأخير بأن تذبح أربع شياه، ليطعم منها الضّيوف، ويوزّع الباقي على بيوت القبيلة شكرا لله على عودة سليمان سالما. كان يريد أن يرى زينب فورا، فلم يستطع أن ينتظر أكثر، فتوجّه إلى خيمة أخيه أحمد، حيث وجد ذهبية وأخته أمّ الخير، التي احتضنته، كما تحتضن أمّ مفجوعة فقدت ابنا لها ثمّ عاد فجأة إلى حضنها الدّافئ، كانت تطوّقه بيديها، وراحت هي الأخرى تبكي بكاء مرّا، وتذكر له لوعة أبيه بعد أن طالت غيبته عنه كثيرا، فامتزجت فرحتها بلقاء أخيها العائد، بحزنها على موت أبيها الرّاحل، فكان سليمان هو من يواسيها، ويحاول التّخفيف عنها، وإذا بذهبية تأخذ بيدها صبيّة جميلة، وتقول لها: (سلّمي على أبيك، لا تخجلي إنّه والدك... هيّا

يا زينب!) ولكنّ الطّفلة لم تكن تتحرّك من مكانها، وظلّت تحاول أن تختفي وراء زوجة عمّها. كان عمرها قد قارب خمسة أعوام وكانت جميلة كزهرة متفتّحة، هادئة ووادعة. فتقدّم إليها واحتضنها، ثمّ قبّل جبينها. قال لها إنّه أحضر معه هدايا كثيرة ستعجبها، لم تردّ بشيء، فقد كان بالنّسبة لها شخصا غريبا وهي التي لا تعرف إلّا والدا واحدا هو أحمد بدلا عن سليمان الذي لم تره من قبل، كما أنّ أمّها هي ذهبية التي أرضعتها وربّتها جنبا إلى جنب مع ابنها الأصغر يحي الذي ولد قبل زينب بنحو أسبوع، لم تكن زينب كبيرة إلى الحدّ الذي يجعلها تميّز الأشياء جيّدا، ولا لأن تسمع كلامه وتبريراته. فلم يشأ أن يدخل عنوة إلى عالمها الصّغير. واكتفى بالبقاء بعيدا يملّي ناظريه بصورتها الحلوة، وعينيها الواسعتين اللّتين كانتا تشبهان عيني مريم أمّها لم يملك حينها إلّا أن قال في قرارة نفسه معزّيا (إنّ الوقت كفيل بأن يجعلها تعتاد على وجودي إلى جانبها، وتستأنس بحضوري مع مرور الأيّام).

كانت فرحة النّاس مضاعفة عندما أعلمهم الفرسان بخبر فتح وهران، وأنّ الباي محمّد الأكحل يستعد قريبا لتسلّم مفاتيحها من الإسبان بعد حصار خانق ومعارك مشهودة، وقد حملتهم نشوة الفرح أن حملوا بنادقهم، وأطلقوا رصاصات في السّماء. وكم كانت مفاجأته كبيرة عندما أخبروه أنّهم ظلّوا

يتسقّطون أخبار وهران منذ أن وقع الزّلزال المدمّر بها، وبعد أن بدأ الباي محمّد بن عثمان الأكحل يشنّ حملاته الكثيرة لاسترجاعها، وكان أخوه أحمد هو أكثر النّاس فرحا بنبأ فتح وهران، فلم يذكر سليمان مرجاجو أنّه قد رأى في وجه أخيه تلك الفرحة كذلك اليوم، وزادت فرحته بعدما علم أنّ أخاه كان واحدا من أولئك المرابطين الذين حاصروا الإسبان، وقاتلوا عند أسوار وهران وحصونها طيلة الأشهر السّابقة.

لم ينس ملامح أهل قبيلته، وهم يسمعون مشدوهين، قصّته منذ اليوم الذي كلّفه فيه الباي بالسّفر إلى وهران مع ابن الأحول إلى غاية وقوع الزّلزال الذي أنجاه الله منه بأعجوبة. كما لم ينس حزنه الكبير بعدما علم أنّ أباه ظلّ يلحّ عليهم بأن لا ييأسوا من السّؤال عنه، وأنّه كان في أوقات مرضه يتمنّى أن يرى سليمان قبل أن يسلم الرّوح لبارئها. ولكنّهم بدأوا يفقدون الأمل في رجوعه إلى الجوامع مرّة أخرى، بعد أن أكّد لهم قدّور بن عودة مرّات عديدة أنّ سليمان لم يعد إلى معسكر منذ يوم خروجه منها، وبمرور الشّهور والسّنوات، أصبح الجميع يرجّح أنّه قد مات، وأنّ عليهم أن لا يعلّقوا مزيدا من الآمال، فعودته لم تعد إلّا ضربا من ضروب المحال.

لا زال سليمان مرجاجو يذكر جيّدا اليوم الثّاني من عودته للجوامع، فبعد أن قام بتوديع الفرسان الذين رجعوا إلى

معسكر، فتح الأمتعة ليوزّع الهدايا على الجميع، فبدأ بأهل بيته، ثمّ إلى باقي البيوت، فلم يترك بيتا إلّا وأرسل له حظّه من تلك الهدايا. كانوا سعداء جدّا، وغمرتهم الفرحة التي قرأها في عيون الأطفال، ومن نبرات أصوات العجائز والشّيوخ، الذين راحوا يرفعون أكفّهم بالدعاء له والثّناء على كرمه، ورغم أنّه قد أخذ معه هدايا كثيرة، فإنّها لم تكن لتكفي الجميع لولا منحة الباي محمّد الأكحل، التي حملت على أربعة بغال، فكانت فيها البرانس، والقمصان والسّراويل والنّعال، وكثير من أنواع العطور والطّيب والحنّاء، فعمّت الفرحة، وبدا النّاس كما لو أنّهم كانوا في يوم العيد. كان بين تلك الهدايا التي اشتراها من معسكر برنسان منسوجان من أجود أوبار الإبل؛ واحد لوالده الذي لم يعد موجودا، فلم يجد خيرا من أخيه أحمد ليلبسه وأمّا الآخر فلجدّه الصّادق بن حوّة الذي وجده مريضا، ففرح هو كذلك بهديته. لم يكن والده الحاج محمّد هو الوحيد الذي مات في فترة غيابه الطّويلة، فقد وجد أنّ عدد المغادرين إلى الضفّة الأخرى قد تجاوز العشرين ما بين رجل وامرأة وطفل، ولكنّ الوافدين على الحياة كانوا أكثر بكثير، فقد تزوّج أخوه عبد الرّحمن، الذي أصبح له بنتان، وولد لابن أخيه خالد في اللّيلة التي قدم فيها إلى القبيلة طفله الثّاني، فكانت مصادفة جميلة زاد من تميّزها أن أخبره خالد بتسمية المولود الجديد باسم عمّ

أبيه العائد (سليمان)، فكان عليه أن يكسوه كما هي عليه العوائد، ويستحق منه فوق ذلك، وبطيب الخاطر قطعة سلطاني كاملة. وفي ذلك اليوم أيضا ذهب ليزور قبر والده ويدعو له بالرّحمة هو وأمّه زينب وزوجته مريم، فجلس هناك نحو ساعة من الزّمن، يقلّب صفحات من ذكرياته معهم، تلك الذكريات التي حملها معه في السّجن وفي جبل المائدة، فكان يريد أن يقول لهم ساعتها إنّه قد اشتاق إليهم كثيرا، وإنّهم قد ترجّلوا باكرا، وقبل أن يعود إلى مضارب القبيلة، وعدهم بأنّه سيدعو الله لهم دائما في صلواته، وأن يتصدّق عليهم. يومها وعند رجوعه للبيت لمح ابنته زينب، وهي تلعب مع بعض البنات اللّائي كنّ في مثل سنّها، فوقف ينظر إليها من بعيد، كانت تبدو سعيدة بلباسها الجديد، فاقترب منها، وهي داخل (العشّة) التي بنت جدرانها مع صويحباتها بالحجارة، وصنعن من الطّين أكوابا وفناجين وملاعق. فامتدح بيتها الصّغير الذي أحكمت بناءه والقهوة التي كانت تصبّها بيديها الصّغيرتين صغر تلك الفناجين الطّينية، وسألها معاتبا كيف لا تعطيه منها ليشرب، وهي فتاة من آل الهلالي الأجواد، فابتسمت وأطرقت خجلا.

لا يزال يذكر أيضا كيف بدأ يحسّ أيّاما من رجوعه إلى الجوامع أنّه لم يكن له مكان فيها. فحتّى تلك الولائم اليومية التي كان يقيمها له أهل القبيلة ضاعفت من إحساسه بالغربة

بينهم؛ إذ كانوا يعاملونه معاملة الضّيف. شعور كالذي كان يحسّه صغيرا عندما كان يعود إلى الجوامع من قسنطينة في أوقات العطلة السّنوية، ولكنّه في تلك المرّة أحسّ أنّه قد أصبح رجلا مختلفا عنهم، فرغم أنّ الذي كان يجلس إليهم هو سليمان بن محمّد الهلالي، بشحمه ولحمه، إلّا أنّه كان في الحقيقة شخصا آخر، لا يفكّر كما يفكّرون، ولا يريد أن يعيش كما يعيشون، بين رعي للأغنام والأبقار، وخروج لتعقّب الأسود والفهود، لأنّه كان يتطلّع لحياة مختلفة، أن يحقّق أشياء كثيرة يتعلّم أكثر، ويتاجر ويربح الكثير من الأموال، مثل صديقه قدّور بن عودة، الشّيء الوحيد الذي كان يمكنه أن يقف دون تحقيق تلك الرّغبة هي زينب، التي كان مستعدّا للبقاء من أجلها، ولكنّه وجد أنّ الوقت كان متأخّرا، فالحقيقة التي وقف عندها في تلك الزّيارة أنّ لزينب والدين آخرين، هما أحمد وذهبية، أمّا والداها الحقيقيان فهي لا تعرفهما؛ فالأمّ ماتت من سنوات، والأب في حكم الميّت.

.10.

كان سليمان مرجاجو صاحيا قبل الفجر عندما بدأ يسمع صفير الرّياح، فأحسّ أنّ سفره سيتأجّل إلى أيّام أخرى، أو على الأقلّ في ذلك اليوم، فنهض من مكانه، وفتح باب الغرفة فوجد أنّ السّماء كانت ملبّدة بالغيوم، ونسائم رياح باردة بدأت تخترق مسامات جلده، فرجع ليتوضّأ ويصلي الفجر، وفضّل بعدها أن يبقى في مكانه متربّعا، حيث أرخى قلنسوة برنسه على رأسه، وتلا أجزاء من القرآن الكريم، وأعقبها بالأذكار المأثورة عن النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم. كانت تلك السّاعات الرّوحانية تبعث فيه صفاء لا يستطيع وصفه، فقد أحسّ أنّ روحه متخفّفة من أثقالها، وأنفاسه منطلقة في سحابة من النّور والسّكينة، فكان يتمنّى أن لا تنقطع عنه تلك اللّطائف الإلهية وبعد نحو ساعة، وعندما كان يردّد كلمات التكبير، ارتسمت في خياله صورة تكبير الفاتحين لحظة دخولهم إلى وهران، فتداعت الذّكريات، وامتزجت المشاعر... كان ذلك ذات شتاء من العام 1792 أسابيع قليلة بعد أن عاد من الجوامع إلى معسكر، حيث قرّر أن يرجع إلى دكانه، ويستمرّ في عمله مع قدّور بن عودة الذي كان بالنّسبة لسليمان مرجاجو صديقا فاضلا، ورجلا أمينا مخلصا قلّ نظيره، فلقد ظلّ محافظا على شراكته معه

طوال الفترة التي كان فيها سجينا في وهران، واعتبر ذلك نوعا من المشاركة في أجر الجهاد، وحتّى عندما رجع من الجوامع عرض عليه توسيع شراكتهما إلى تجارة الجلود، والخروج معه في القوافل التّجارية، ولكن كان على سليمان مرجاجو قبل ذلك أن يهيّئ نفسه لأجلّ وأسعد حدث في حياته كلّها، وهو دخول وهران مع الباي محمّد بن عثمان، بعد أن تأجّل الدّخول إليها بضعة أشهر بسبب بنود الاتّفاق مع الإسبان، والتي كان من بينها أن تسلّم المدينة على نفس الهيئة التي تركها عليها المسلمون سنة 1732 بعد أن يتمّ هدم كلّ الحصون التي بناها الإسبان بعد ذلك التّاريخ. كان منظرا يجلّ عن الوصف، وقد تقدّم موكب الباي كبار القادة والوجهاء والعلماء الذين كانت بين أيديهم المصاحف وصحيح البخاري، كلّ شيء حينها كان يشي بالمهابة والفرح الغامر: التّكبير والتهليل والمدائح النّبوية، السّناجق المرفرفة عاليا. لعلعة البارود المدوّية في السّماء. كان سليمان يومها في الصّفوف الأولى، وإلى جانبه أستاذه وأميره في الرّباط عند جبل المائدة، العالم الفقيه محمّد بن عبد الرّحمن الجلالي الذي دمعت عيناه يومها، وهو يرى تلك المباني والصّروح العظيمة، والأرض التي رجعت إلى أصحابها بعدما كان محرّما عليهم دخولها قبل ذلك التّاريخ، ذكر له معلّمه حينها الآية الكريمة: (قل اللّهُمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك

ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير) تذكر مرجاجو حينها، وهو على صهوة حصانه مع ركب الفاتحين، كلّ شيء من لحظة دخوله إلى المدينة مع ابن الأحول إلى أن سجن، وما تلا ذلك من الزّلزال والخروج. سأل نفسه إن كان صديقه خوسيه لا يزال حيّا، فراوده إحساس في أعماق نفسه أنّه مشتاق جدّا لرؤيته من جديد. وبينما سار بقيّة النّاس مع الباي إلى غاية البرج الأحمر الذي نزل عنده الفاتح المظفّر، آثر سليمان مرجاجو أن يعرّج على موضع سجنه الذي لم يبق منه إلّا الأطلال. فتوجّه إلى مكان زنزانته، وأخذ يتحسّس بيديه مواضع جلوسه ونومه، وصلاته وسجوده. فسرت في جلده رعشة غامضة. فكلّ شبر من ذلك السّجن كانت له ذكرى في نفسه، ثمّ قام من مكانه وسار بين خطّي الممرّ الذي كان يفضي إلى ساحة السّجن، ومن دون أن يشعر، أسرع في خطوه مثلما كان يفعل في أيّام سجنه الحالكة، وقتها كان يخرج مستعجلا ليعانق بعينيه زرقة السّماء، وتتدفّأ روحه بوهج الشّمس الغامر، في ذلك الزّمن لم تكن هناك أصوات تصل إليه من العالم الخارجي غير أصوات قرع الأجراس في أيّام القدّاس، أو تلك التّحذيرات التي كان يطلقها الحرّاس من الحصون عبر أبواقهم النّحاسية عند اقتراب أحد الغرباء من أسوار المدينة خطر في باله أنّه ربّما كان هو النّاجي الوحيد الذي خرج حيّا من

أنقاض السّجن في تلك اللّيلة المشهودة، فاستشعر عظيم المنّة وعندما كان واقفا في وسط ساحة السّجن، انحنى إلى الأرض وأخذ كمشة من التّراب بقبضته الحديدية، ثمّ شمخ بطوله الفارع مرّة أخرى، مصوّبا نظراته الحادّة ناحية جبل مرجاجو وصعّد النّظر إلى آخر نقطة منه، حيث كان حصن جحر الأفعى تذكّر أنّه لم يكن قادرا في ما مضى أن يرفع صوته، فلوّح بقبضة يده في السّماء عاليا، وبأعلى صوته تلا الآية التي تردّدت حروفها في الأرجاء: (قل اللّهُمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير).

في الحرب، وكما يوجد منتصرون، فهناك منهزمون أيضا، وفي حالة وهران فإنّ الإسبان لم يكونوا الوحيدين في كفّة الخاسرين، فقد تجرّع حلفاؤهم المغاطيس المصير ذاته، بعدما تخلّى عنهم أسيادهم السّابقون، وتركوهم لوحدهم ينتظرون مصيرهم المجهول في مواجهة بني جلدتهم، فكان سليمان مرجاجو مثل باقي النّاس يتساءل وقتها عن نوع العقاب الذي سينزله الباي محمّد الأكحل على تلك الشّرذمة التي باعت دينها وضمائرها للأعداء، ولكنّ الأخير فضّل أن يصفح عنهم، ويفتح معهم عهدا جديدا، وشرع بعدها في تعمير المدينة التي اتّخذها مقرّا لحكمه، فبنيت المدارس والمساجد، وعبّدت الطّرق، ومدّت

قنوات المياه، فتعاظم عدد السكّان شيئا فشيئا بعدما أقبل النّاس إليها من كلّ الجهات، ونقلوا معهم أعمالهم وحرفهم، وفي تلك المدّة قرّر هو وصديقه قدّور بن عودة أن يستقرّا في وهران فتوسّعت شراكتهما، وتعدّدت رحلاتهما التّجارية؛ من فاس غربا إلى تونس شرقا، حيث كان يستغلّ تلك الفرص الثّمينة أيضا لإحضار الكتب النادرة من خزانات الكتب التي كان يصل إليها حتّى إنّ الباي محمّد الأكحل نفسه، كان يطلب منه استنساخ بعضها لمكتبته الخاصّة، بل وألحّ عليه في فترة ما أن يشرف بنفسه عليها، فأجابه مرجاجو إلى ذلك الطّلب الذي صادف هوى في نفسه، وعلى الرّغم من علاقته المتينة بالباي محمّد الأكحل، إلّا أنّها ظلّت في حدودها الضيّقة، فلم يكن يريد أن يتولّى شيئا من الوظائف الرّفيعة رغم المغريات الكثيرة، وفضّل أن يعيش ما بين أعماله التّجارية، وشغفه في مطالعة الكتب في تلك السّاعات اللّيلية الممتعة. ومع موت الباي محمّد اقتصرت علاقته ببلاط الحكّام في حدود الشّكليات والمراسم الاحتفالية خلال الأعياد والمناسبات كسائر وجهاء وأعيان المدينة، وحتّى فترات الرّخاء تلك، لم تدم طويلا بعدما تلاحقت الجوائح وأطلّت الفتن بقرونها من كلّ مكان...

****

بينما كان مرجاجو مستغرقا في نشوة ذكرياته الجميلة أثناء فتح وهران، سمع دقّات قوية على الباب رغم صفير الرّياح العاتية، التي كانت تتسرّب من شقوق النّوافذ، وتلا ذلك صرير الباب وهو يفتح، أعقبه غمغمة غير مفهومة، كان ذلك الصّوت هو صوت الخادم في حديث مع الرّجل الذي ظنّ مرجاجو في البداية أنّه مبعوث من قصر الجنينة، فهبّ من مكانه، ونظر من شرفة الطّابق الأعلى إلى الأسفل يستطلع الأمر، فوجد الخادم يبلغه أنّ الباش رايس عمر ينتظره عند الباب، فنزل مرجاجو وألحّ عليه أن يدخل إلى البيت ليرتشفا معا فنجانا من القهوة ولكنّ الأخير أصرّ أن يشربا تلك القهوة في أحد المقاهي الشّعبية القريبة. كان مرجاجو يريد أن يقول للباش رايس عمر أنّه يخشى أن يرسل الدّاي في طلبه إلى قصر الجنينة في ذلك الصّباح ثمّ لا يجدونه في البيت، ولكنّه استبعد أن يحدث ذلك بسبب حالة الجو المضطرب، فأوصى الخادم أن يخبر من يأتي ليسأل عنه أنّه لن يتأخّر كثيرا في العودة.

كان الوقت لا يزال باكرا عند خروجهما في ذلك الصّباح الغائم إلى شوارع المدينة، والرّياح الشّرقية الباردة تكاد تنزع البرانس عن أكتاف المارّة، ممّا اضطرّ مرجاجو والباش رايس عمر أن يتلفّعا جيّدا ببرنسيهما الصّوفيين لتجنّب نزلات البرد، وبينما كانا ينحدران في اتّجاه السّوق الكبير، مرّت أمامهما مجموعتان

من الجنود الأتراك، فكانت أعقاب أحذيتهم تطرق حجارة رصيف الشّارع، الذي كان نظيفا جدّا، بعد أن أنهى القائمون على نظافة المدينة حمل نفاياتها على ظهور بغالهم وأحمرتهم وتوجّهوا لرميها بعيدا وراء أسوار المدينة.

لاحظ مرجاجو أنّ كلّ المقاهي التي مرّا أمامها كانت مكتظّة بالزّبائن، وبدت طاولاتها قديمة، ومقاعدها متداعية، وبعد مدّة يسيرة وصلا إلى المقهى المفضّل لدى الباش رايس عمر، وكان يوجد في أقصى الشّارع المؤدّي إلى باب الوادي، وبعد أن أخذا مكانهما عند إحدى الطّاولات، انتظرا النّادل الذي لم يتأخّر طويلا حتّى وضع أمامهما فنجاني القهوة، فكانت تعبق منهما روائح التّوابل المغرية.

. ولكن قل لي كيف عرفت مكان البيت الذي أقيم فيه؟

. هذا ليس صعبا سيّد مرجاجو، فأنا أعرف أحد الشّواش الذين يحرسون القصر، كان إلى وقت قريب يعمل معنا في السّفينة، فأوصيته أن يجد لي عنوان رجل طويل كثّ اللّحية قدم إلى قصر الجنية في الصّباح، فتدبّر الأمر، ووصل إلى معرفة البيت من أحد الخادمين الزّنجيين اللّذين جاءا إليك بالأمس ولمّا ذهبت إلى البيت، ولم أجدك هناك قلت في نفسي سأعود إليه في الغد بعد أن يكون قد ارتاح قليلا من سفره. وأنت كيف وجدت المحروسة هذه المرّة؟

. لم ألاحظ أيّ تغيير. رغم أنّي لم أبتعد كثيرا عن السّوق فاكتفيت بشراء بعض الهدايا لآخذها معي عندما يأذن الله لي بالسّفر إلى الشّرق، إلّا أنّي أحسست بأنّ ثمّة من يتتبّعني فرجّحت أن يكون أحد اللّصوص.

. ومن ذا الذي يجرؤ على الاقتراب من رجل مهاب مثلك! ثمّ أردف الباش رايس عمر قائلا:

. الخوف هنا ليس من اللّصوص. بل من الجنود اليولداش المتذمّرين من الدّايات طوال الوقت، أمّا الباقي فالمدينة آمنة والأمور هنا مضبوطة ومنتظمة كانتظام عقارب السّاعة، فلا أحد من غير العسكريين مرخّص له بحمل السّلاح، والنّاس هنا ينامون باكرا، ولا يخرجون من بيوتهم إلّا بعد أن تفتح أبواب المدينة، فيعرض التجّار سلعهم، ويزاول أصحاب الحرف حرفهم. وهم منظّمون بشكل جيّد، ولكلّ طائفة من تلك الحرف رؤساؤها ومقدّموها؛ السرّاجون والخرّازون والصّاغة والحدّادون وباقي الحرف. حتّى أنّك تجد لكلّ وظيفة أو حرفة أصحابها الذين عرفوا بممارستها؛ فأهل ميزاب في الحمّامات والأفران والحمّالون من أهل الأغواط، وحرّاس البوابات من البساكرة ولليهود حيّهم ولباسهم ومقدّم طائفتهم، وللأسرى الأوربيين حاناتهم، ومبانيهم التي يؤوون إليها.

كان كلام الباش رايس عمر يؤكّد الانطباع الذي تكوّن في عقل مرجاجو عن شخصية محدّثه، وحدّة ذكائه منذ أن جلسا يتجاذبان أطراف الحديث على ظهر السّفينة، وفجأة، وكأنّ الباش رايس عمر كان يقرأ ما يجول في رأس مرجاجو، مضى قائلا:

. يمكنك أن تعيش هنا وتصبح غنيّا، ولكن لا يمكنك أن تطمح إلى أكثر من ذلك مهما بلغ ذكاؤك، فللسّطلة أهلها أيضا فإذا كنت بحّارا فيمكنك أن تترقّى من نوتي إلى باش رايس وبكثير من الحظ قد تصبح رايسا، أمّا في البرّ فإنّه من المحال أن تترقّى في المناصب مالم تكن تركيّا من إزمير أو نوقيا، ولا يهمّ بعدها، إن تحقّق فيك هذا الشّرط الضّروريّ، أن تكون عسكريّا أم لا، فحتّى لو كنت كنّاسا، أو غسّالا للموتى، وكنت داهية تتدرّج في الوظائف بالرّشوة والتزلّف لأصحاب النّفوذ، فإنّه يمكنك أن تصل حتّى إلى منصب الدّاي نفسه، وفي مدّة قصيرة.

. لم تقل لي سيّد سليمان متى ستذهب لزيارة أهلك؟

. لست أدري متّى سيحصل ذلك، فأنا أنتظر أن يرسل الدّاي في طلبي لأحمل كتابا منه إلى باي قسنطينة، ولكن ما دام الجوّ مضطربا، فالسّفن لا يمكنها أن تبحر أبدا.

. وهل سنراك مرّة أخرى في الجزائر؟

قال باش رايس ذلك، وواصل قائلا:

. اعذرني سيّد سليمان، فقد أكون مهذارا وكثير الأسئلة ولكنّ الله يعلم أنّي قد أحببتك كثيرا، على الرّغم من أنّنا لم نجلس إلّا مرّة واحدة، وجمعتنا الأقدار في رحلة لا تبعث مهمّتها على الاطمئنان، إلّا أنّي كنت أنظر إليك من بعيد متأمّلا عند جدار السّفينة، ومسحة من الحزن تبدو على ملامح وجهك فشعرت أنّك مثقل بالهموم، وأنّك بخلاف ما يتصوّر المرء لأوّل وهلة، وهو يرى رجلا يرافق المئات من الرؤوس المقطوعة لتعلّق على أسوار المحروسة.

. لا عليك يا صديقي، سأعود إلى المحروسة في أقرب فرصة بعد أن أزور أهلي، فلقد اشتقت إليهم كثيرا، إذ لم يتسن لي زيارتهم منذ مدّة طويلة بعد أن اشتعلت البلاد، وعمّت الفتن وتقطّعت السّبل. لقد قررت أن أستقرّ هنا نهائيا، وأمارس حرفتي في صباغة الصّوف، وتجارة الجلود.

أمّا تلك الأحزان التي كنت تراها على ملامح وجهي، والهموم الثقيلة التي أحملها، فقد كنت صادقا في شعورك، فلهي أثقل على كاهلي من الجبال الرّواسي. ما أستطيع أن أقوله لك هو أنّي ألزمت نفسي منذ أن أطلّت هذه الفتن برؤوسها أن لا أتورّط في دماء المسلمين، لا من بعيد ولا من قريب. بل وقد بذلت وسعي في السّعي إلى حقنها قدر طاقتي، ولمّا وجدت العواصف الهوجاء

أقوى منّي انسحبت بعيدا إلى أن تهدأ الأحوال. وفي خلال تلك الفترة انقطعت زياراتي التي كنت أقوم بها إلى الجوامع، بعدما اشتعلت البلاد كلّها من أقصاها إلى أقصاها، فتمرّد أحمد بن الأحرش في شرق البلاد، وعبد القادر بن الشريف الدّرقاوي في غربها، وبقدر ما كان صعبا على نفسي أن أبقى طوال تلك المدّة من دون أن أطمئنّ على حال أهلي، بقدر ما كان قاسيا أيضا عليّ أن أرى ما حلّ بالنّاس بعد أن استحرّ القتل، وترك النّاس زراعتهم في الأرياف، وأغلق أصحاب الحرف دكاكينهم في المدن فكسدت التّجارة، وأصاب النّاس بلاء عظيم. كنت أعرف جيّدا أنّ النّاس كانوا ناقمين على حكم الأتراك الذين أرهقوا كواهلهم بالإتاوات والحقوق المخزنية، ولكنّي لم أكن أتوقّع أن تصل الأمور إلى ذلك الخراب العميم الذي أنهك البلاد والعباد، لقد قاتلنا الإسبان صفّا واحدا حتّى انتصرنا عليهم، ولمّا اشتبهت عليّ الأشياء انسحبت كيلا ألطّخ صفحة من جهادي بدماء أناس كنت أعرف أنّهم مساقون بجهلهم إلى طريق مسدود، ولكن ها أنت ترى مهما حاول الواحد أن يأخذ مسافة عن النّار المستعرة فلا بدّ أن يصيبه شيء من شررها.

. ومن أين أتى ابن الشّريف الدّرقاوي بكلّ تلك القوّة حتّى يبسط سلطانه على كلّ الجهة الغربية من وجدة إلى مليانة؟

. لقد استغلّ ابن الشريف الدّرقاوي ذلك السّخط الذي كان يعتمل في نفوس النّاس اتّجاه الأتراك، وكنت شاهدا بنفسي في بعض أسفاري التّجارية عندما وقف ابن الشّريف الدّرقاوي في أحد الأسواق بجثّته الضّخمة، ولباسه المرقّع، وهو يكفّر الأتراك، ويستبيح دماءهم وأموالهم. لم يكن ممكنا في وقتها أن تجادل أحدا، والحشود ماضية في طريق الحرب لا تلوي على شيء. كنت أراها كتلك الأشجار التي انقطع عنها الماء حتى جفّت ويبست، ومع أوّل شرارة احترقت، وأحرقت كلّ شيء من حولها. وبعد أن عزل الباي عثمان بن محمّد الذي خلف أباه على حكم الإيّالة الغربية، استقوت شوكة ابن الشريف الدّرقاوي في عهد الباي مصطفى المنزلي، الذي كان ضعيفا وغير قادر على ضبط الأوضاع في الإيالة، فهزمه الدّرقاوي شرّ هزيمة في معركة فرطاسة، واستطاع أن يضع يده بعدها على الجهة الغربية، بل وبلغ به الأمر إلى الهجوم على وهران التي حاصرها شهورا طويلة قبل أن يرسل الدّاي السّابق مصطفى باشا سفنه المحمّلة بالجنود ومعهم الباي محمّد المقلّش، الابن الثاني الأصغر لمحمّد بن عثمان الأكحل، وبعد أن فكّ الحصار على المدينة عرض عليّ الباي الجديد أن أخرج مع مجموعة من الوجهاء لقبائل الغرب نعرض عليهم العفو مقابل أن يتخلّوا عن اتّباع ابن الشّريف الدّرقاوي، فرأيت أن أسعى إلى الخير، وأسهم في حقن دماء

النّاس، لقد حاولنا جهدنا أن نقنعهم بفساد ما كان يدعو إليه ذلك الرّجل، فوجدنا أنّ كثيرا منهم اكتشفوا بأنفسهم حقيقة أمره، وقرّروا الانقلاب عليه، وبعد المعارك الأخيرة أظنّ أنّ أيّام الدّرقاوي قد أصبحت معدودة، وقد تفرّقت عنه أكثر القبائل.

. (غريبة هي صروف القدر!!) هكذا علّق الباش رايس عمر على كلام مرجاجو، ثمّ أردف قائلا:

. لقد كان حظّ الباي محمّد المقلّش أحسن من حظّ أخيه عثمان الذي أرسله الدّاي بابا على قسنطينة، فقتله ابن الأحرش قبل سنتين في معركة وادي الزّهور، ووصل الأخير أيضا إلى أن قام بمحاصرة قسنطينة نفسها. أذكر أنّ الدّاي مصطفى باشا قد أرسل الرّايس حميدو إلى جيجل فأحرق له سفنه التي قام بقرصنتها من الفرنسيين الذين كانوا يصطادون المرجان في السّواحل الشّرقية.

كان الباش رايس عمر يتكلّم بينما كان سليمان مرجاجو شاردا في تفكير عميق، لم يخرج من أعماقه السّحيقة إلّا على قصف الرّعود، التي بدأت تتلوها زخّات من المطر، الممزوج بعصف الرّياح. لاحظ مرجاجو تحوّل أنظار كلّ من كان في المقهى إلى الخارج، فراحوا ينظرون إلى البروق التي كانت تجلد سماء المحروسة بسياطها، وتحزّ صفحتها الرّمادية الملبّدة بضوء باهر

يكاد يخطف الأبصار، فأخذ البعض منهم يستبشر بعام فيه يغاث النّاس. ويبسط فيه الخير على الجميع.

وبعد أن خفّ المطر قليلا كان مرجاجو ورفيقه في جولة يجوبان الشّوارع التي بدت مكتظّة من جديد، والنّاس ينزلون من أعالي أزقّة المدينة؛ كلّ يسعى في حاجته، ولكنّ مرجاجو في تلك السّاعة لم يكن مشغولا إلّا بسؤال واحد:

. من هو ذلك الرّجل الذي كان يتتبّع خطواته؟

.11.

بعد أسبوع من الأمطار التي كانت تسقط كالقرب المتدفّقة والتي لم ير سكان المحروسة مثلها منذ زمن طويل، كان الصّحو من جديد، فضجّت الشوارع والأزقّة بصياح الأطفال، وعادت الحياة إلى الأسواق، التي لم تكن خلال الأيّام الماضية عامرة كما كانت في ذلك اليوم. كان التجّار يتوافدون ببضائعهم من كلّ فجّ عميق، ويعرضونها أمام المارّة على الأرصفة. وقد صادف ذلك اليوم يوم ثلاثاء، ورغم أنّه يوم عطلة، فقد جاء لسيلمان مرجاجو مبعوث من الخزناجي يخبره بأن يأتي صباح الغد إلى قصر الجنينة ليحمل كتاب الدّاي أحمد باشا لعبد الله بن إسماعيل باي قسنطينة. كان سليمان قد جهّز نفسه للسّفر قبل ذلك، وينتظر فقط الإذن من الدّاي، بعدما أودع أمواله عند وكيل أملاك المسجد، واشترى الهدايا التي سيحملها معه إلى الجوامع، وأخبر أيضا وكيل باي وهران في الجزائر، الذي كانت تجمعه به صداقة قديمة، أنّه قد اتّفق مع شريكه قدور بن عودة أن يحصّل له ديونا من بعض تجّار وهران، ويرسل له ذلك المال مع صناديق كتبه إلى وكيل الباي في الجزائر.

وأوّل شيء خطر ببال سليمان مرجاجو عندئذ هو أن يؤدي زيارة إلى الرّايس صالح، بعدما ألحّ عليه الأخير عند وصولهما إلى

ميناء الجزائر أن لا يسافر قبل أن يراه مرّة أخرى، وحدّد له عنوان البيت الذي يسكن فيه. ولكنّ ظروف الجوّ المتقلّب جعلته يؤجّل تلك الزّيارة إلى وقت آخر. ولمّا أجمع أمره على الوفاء بوعده، فإنّه لم يجد أحسن من الباش رايس عمر ليرافقه إلى هناك، فانتظر مرجاجو في ذلك الصّباح مجيء صديقه الجديد، الذي كان يأتيه طيلة أيّام الأسبوع الفارط ليمضيا أوقاتهما معا في البيت أو في الشّوارع في ساعات الصّحو القليلة التي كانت تخلّل تلك الأيّام. لم يتأخر الباش رايس عمر طويلا حتّى كان عند مرجاجو، وبعد أن رحّب بفكرة تلك الزّيارة رجّح أن لا يكون الرّايس صالح في بيته الذي يقع داخل المحروسة، بما أنّ اليوم هو يوم عطلة يستغلّه الأغنياء والوجهاء للتّفرغ لعوائلهم، فيأخذون أبناءهم إلى الضّواحي الرّيفية للمحروسة، التي توجد فيها بساتينهم وقصورهم، وقد اعتاد سكّان الجزائر تسمية تلك الضّواحي بأراضي الفحص.

كان قصر الرّايس صالح يقع في فحص الحامّة، حيث تنبع من هناك مياه عذبة تنقلها قنوات محكمة التّصميم إلى داخل أسوار المحروسة، وللوصول إلى هناك يتطلّب الأمر ساعة من الزّمن مشيا على الأقدام، ولكنّ مرجاجو ورفيقه قاما باستئجار حصانين بمجرّد الخروج من باب عزّون لأنّ الأرض كانت موحلة وسلكا الطّريق المحاذي للسّاحل، ومن عين الرّبط انحرفا إلى

اليمين قليلا عبر مسالك غابية تتناثر على جانبيها قصور بيضاء ذات هندسة متشابهة.

كانت أسراب العصافير تواصل تغريدها المحموم الذي يكاد يصمّ الآذان عندما لاح بين أشجار الصنوبر في أحد المنعرجات قصر الرّايس صالح من وراء سور عال، وكان السّور محاطا بأشجار الصبّار، وكلّ المساحة التي تفصل بين السّور وذلك السّياج الطبيعي عبارة عن بستان من الأشجار المثمرة، التي يتخلّلها مسلك ضيّق ينتهي عند باب السّور. لقد سمع سليمان مرجاجو الرّايس صالح، وهو يكلّمه عن جمال ذلك القصر والبساتين التي حوله منذ أن كانا على ظهر السّفينة، ولكنّه لم يكن يظنّ أنّهما كانا بتلك الرّوعة. وازدادت مفاجأته أكثر عندما أخبره الباش رايس عمر أن يصبر قليلا حتّى يرى ما هو أجمل من ذلك بكثير.

تطلّب الأمر بعض الوقت قبل أن يسمع الرّفيقان صوت أحدهم من داخل السّور ينبّه الطّارق أن يتريث قليلا حالما يقوم بفتح الباب، حينها همس الباش رايس عمر لمرجاجو أنّ صاحب الصّوت هو السيّد علي بن الرّايس صالح. كانت حفاوة الاستقبال كبيرة وحارّة من ابن الرّايس صالح الذي لم يكن يشبه أباه شبها قويّا في الصّورة فحسب، بل وفي دماثة الخلق وبشاشة الوجه أيضا. وفي تلك الأثناء التي كان يعانق فيها الباش

رايس عمر السيّد علي، كانت هناك شابة جميلة قادمة من الجهة اليمنى للقصر، وفي يدها دلو كانت متوجّهة به إلى النّافورة المقابلة لباب القصر، ولكنّها لم تنتبه للرّجلين الغريبين اللّذين كانا يقفان مع أخيها عند الباب إلّا عندما سمعت ذلك الصّوت الذي تناهى إلى سمعها، فالتفتت بحركة لا شعوريّة اتّجاهه، وهنا التقت عيناها في تلك اللّحظة بعيني سليمان مرجاجو، الذي سرعان ما أشاح بوجهه وغضّ بصره، بعد أن حدّث نفسه أنّه ما كان ينبغي له أن يمدّ بصره إلى ما لا يحلّ له، ولكنّه مع ذلك عاد ليهوّن ممّا وقع لأنّه كان من غير تعمّد منه.

كلّ شيء بدا أمام عيني مرجاجو مميّزا وفخما: الحديقة والقصر وحفاوة الاستقبال؛ كان سعيدا أن يرى الرّايس صالح ويقضي في ضيافته ساعات من المتعة الفائقة، وخاصّة عندما أطلعهم الأخير على التّحف الجميلة التي ظلّ يحتفظ بها في قصره، كما رافقهم إلى خارج القصر، ليشاهدوا خيوله الجميلة وأشجار الورود التي قام هو نفسه بجلبها من البلدان الكثيرة التي زارها بسفينته. وتضاعفت سعادة مرجاجو أكثر عندما عرض عليه السيّد علي أن يدخل معه شريكا في تجارة الصّوف والجلود حالما يعود من سفره، وكان ذلك بتشجيع من الرّايس صالح الذي كان شديد التحمّس للفكرة. كان ذلك اليوم بلا شكّ هو

أجمل يوم قضاه مرجاجو في المحروسة منذ أن نزل فيها قبل أسبوع.

في طريق العودة ظلّ سليمان مرجاجو صامتا، بينما كان الباش رايس عمر يفيض في الحديث عن كرم ضيافة الرّايس صالح لهما، ويشجّع رفيقه على المضي في فكرة الشّراكة التي اقترحها عليه السّيد علي لتجسيدها حال عودته من زيارة أهله فالشّاب بحسب الباش رايس حاذق في التّجارة، ويمكنه أن يفتح أمام مرجاجو الباب على مصراعيه، ويعرّفه بكبار تجّار المحروسة، ومن يدري فقد يصبح في فترة وجيزة واحدا من أولئك التجّار الذين يشار لهم بالبنان. وفيما كان الباش رايس يواصل كيل المدائح للسيّد علي، ويسهب في تعداد خصاله ومواهبه الكثيرة، حوّل سليمان مرجاجو دفّة الحديث إلى موضوع آخر شغل باله منذ أن كانا جالسين مع الرّايس صالح وابنه في القصر:

. إذا لم أكن مخطئا فقد أخبرني الرّايس صالح عندما كنّا على ظهر الفرقاطة أنّ له إلى جانب علي بنتا أيضا!

التفت الباش رايس عمر إلى مرجاجو، وافترّت شفتاه عن ابتسامة ظريفة، كما لو أنّه كان يريد أن يقول لصاحبه (أنا أعرف جيّدا ما ترمي إليه) ولكنّه آثر مع ذلك أن يجيبه ملمّحا:

. إنّها فتاة غير محظوظة، فقد تزوّجت قبل ثلاث سنوات من رجل مسن، ويبدو أنّه كان يسيء معاملتها، فلم تمكث عنده إلّا بضعة أشهر ثمّ طلّقت.

. أليس غريبا أن تبقى فتاة بمثل مكانة ووجاهة عائلتها بدون زواج طوال كلّ تلك المدّة؟

. كما قلت لك هي فتاة غير محظوظة، فقد خطبها كثير من الوجهاء وخاب سعيهم في ذلك، رغم أنّي متأكّد أنّ الرّايس صالح لم يكن ليتردّد لحظة واحدة في تزويجها لو خطبها الرّجل المناسب. أظنّه الآن يشعر بالنّدم لأنّه كان سببا في فشل زواجها الأوّل.

. وهل زوّجها ضدّ رغبتها؟!

. وأين الغرابة في ذلك؟ فهذا يحصل كثيرا في بيوتنا، ولا سلطة تعلو فوق سلطة الأب.

. أقصد أنّ الرّايس صالح ذو أصول إيطالية، وقد تربّى في بلاد لها عادات تختلف عن عاداتنا.

. أنت تعرف يا سيّد مرجاجو أنّ الرّايس صالح اعتنق الإسلام صغيرا، ومن الطّبيعي أن يتصرّف كما يتصرّف المسلمون.

. إنّها أعراف وتقاليد خاطئة سيّد عمر، ولا علاقة لها بالدّين فالمرأة في الإسلام لها رأيها المعتبر في اختيار شريك حياتها، ولا تغصب على الزّواج ضدّ رغبتها، وخاصّة إن كانت راشدة، لقد

تزوّجنا جميعا بتلك الطّريقة المتعسّفة، ولكن صدّقني حينما تقرأ وتتعلّم تجد الفرق شاسعا بين ما يحثّ عليه الدّين من جهة، وما هو متوارث بحكم العادات والتّقاليد من جهة أخرى.

. من الصّعب سيّد مرجاجو أن تحاول إقناع النّاس بذلك في مجتمعاتنا. إنّهم يفضّلون الموت على أن يخالفوا ما اعتادوا عليه وتوارثوه أبا عن جد، ففي حالة الزّواج إذا كان الوالدان قد اتّفقا سلفا على تلك الزّيجة، فلا سبيل بعد ذلك إلى المعارضة وحتّى تلك الزّيارة التي تؤديها أمّ العريس وأخواته لبيت العروسة لا تقدّم ولا تؤخّر شيئا، إنّها لا تعدو أن تكون مجرّد زيارة لترسيم ما اتّفق عليه الوالدان آنفا.

. إنّه لمن المؤلم أن نصبغ عاداتنا البالية بمسحة من الدّين لنضمن لها شرعية مزيّفة. لو عشت في البادية مثلي، لأدركت أنّ الوضع أفدح بكثير، فالمرأة هناك تكدّ وتشقى، وتنجب وتربّي وأحيانا يفوق جهدها حتّى جهد الرّجال لتجد نفسها في الأخير مسلوبة من أبسط حقوقها الشّرعية. عندما كنت صغيرا كنت أعتقد أنّ هذا هو الوضع الطّبيعي، ولكنّي بالتعلّم والقراءة بدأت أدرك تلك الفوارق الكبيرة بين ما هو دين، وما هو من جملة العادات المنحرفة، وتأكّدت أنّ السّبب وراء كلّ ما نعيشه من تخلّف، هو الجهل العام، أجل! إنّ أكبر عدوّ للإنسان هو الجهل؛ الجهل الذي يجعل على بصرك غشاوة دون أن ترى

حقائق الأشياء، وتظلّ منزوع الإرادة ومساقا إلى الهاوية دون أن تتحرّك قيد أنملة لتغيير واقعك السّيء.

. لقد صدقت سيّد مرجاجو الجهل عدوّ بغيض، وهذا ما أعرفه أنا أيضا، رغم أنّي لم أكن محظوظا لأتعلّم وأقرأ الكتب مثلك، ولكنّي بحكم عملي الطّويل في البحر واختلاطي بكثير من الأعراق والعادات، أستطيع أن أقول لك جازما إنّنا متخلّفون كثيرا عن تلك الأمم الأوربية، فاليوم لا مجال للمقارنة بين سفننا البدائية، وسفن الأوربيين المتطوّرة بمدافعها القويّة على الرّغم من شدّة بأسنا في المعارك وشجاعة بحّارتنا، حينما أنظر إلى أبسط الأدوات التي نستعملها في ملاحتنا أجدها من صنعهم: المناظير والبوصلات والخرائط الدّقيقة. إنّهم يستطيعون الإبحار منذ زمن بعيد إلى أمريكا والبرازيل بسهولة أمّا نحن فلا زلنا نهتدي بالنّجوم والجبال التي على اليابسة لتحديد المواقع، وحتّى لو تجاوزنا مضيق جبل طارق، فإنّنا لا نبتعد كثيرا عن السّواحل. لقد تحدّثت إلى كثير من البحّارة الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام، أو إلى أولئك الذين وقعوا بين أيدينا في الأسر، فعلمت منهم كيف أصبحوا يعالجون مرضاهم بالأدوية الحديثة والفعّالة، وكم هي أعداد الأطباء في بلدانهم كبيرة، حينها كنت أشعر بالخيبة لحالنا عندما تفتك بنا الأمراض والجوائح، فلا وجود لمستشفى واحد في المحروسة كلّها

كالمستشفى الإسباني الذي يشرف عليه قساوسة النّصارى لمعالجة أسراهم، وحتّى حكّامنا اليوم يستعينون بأولئك الأطبّاء في قصورهم، بينما يعاني بقية النّاس في صمت؛ إنّهم يكنزون الأموال العظيمة في سراديب تحت الأرض، ولا ينفقون منها بما يعود على النّاس بالخير. لأجل ذلك يبدو أنّنا سننتظر طويلا قبل أن نفيق أخيرا من سباتنا الطّويل.

كان سليمان مرجاجو يسمع كلام الباش رايس عمر، ويشعر بنفس الحسرة التي كانت تبدو من نبرة محدّثه، ولم يخامره شكّ حينها في أنّ رجلا بنباهته كان قادرا على أن يشقّ طريقه لأعلى المناصب، لو تهيّأ له أن يعيش في مناخ أحسن. وتساءل مرجاجو في نفسه حالما: (ماذا لو كان أكثر النّاس بذكاء وبصيرة صديقه الباش رايس عمر؟)، حينها لم يتردّد لحظة في أن يقدّر أنّ واقع النّاس سيكون أفضل بكثير ممّا هو عليه في تلك الأيّام.

ودّع سليمان مرجاجو رفيقه الباش رايس عمر عندما وصلا إلى داخل أسوار المحروسة، ووعده بأنّهما سيلتقيان من جديد بعد عودته من الجوامع، إلّا أنّ الأخير أكّد له أنّه سيكون غدا في الميناء، وسيلتقي به مرّة أخرى قبل أن تبحر السّفينة.

كان الجوّ جميلا في وقت الظّهيرة عندما توجّه كلّ من مرجاجو، والباش رايس عمر إلى بيتهما، وحركة النّاس في الشّوارع بدت قليلة مقارنة بذلك الصّخب الكبير في الصّباح.

حاول سليمان مرجاجو في طريقه إلى البيت أن يتحسّس إن كان أحدهم يراقبه، ولكنّه لم يلحظ أيّ شيء غريب يتحرّك من حوله.

في الحقيقة لم يعد مرجاجو يحسّ بتلك الحركات المريبة التي كانت تتعقّبه بعد اليوم الثاني لوصوله للجزائر، وتحديدا عندما خرج من المقهى الشّعبي برفقة الباش رايس عمر في ذلك الصّباح العاصف والمطير، ممّا جعله يعزو ذلك إلى بعض اللّصوص وخاصّة أنّ بداية إحساسه بأنّه مراقب تصادفت في يوم وصوله إلى المحروسة، وتحديدا بعيد وقوفه عند الصرّاف اليهودي وإخراجه لصرّة المال، لذلك ظلّ حذرا كيلا يؤخذ على حين غرّة وعلى الأخصّ في تلك الأزقة الضيّقة أو الفارغة من المارّة.

****

في مقرّ إقامته انزوى مرجاجو في زاوية من غرفته متفكّرا في شيء كان يعتقد أنّه قد قام بحسمه منذ زمن بعيد، ولكنّ نظرة واحدة مفاجئة إلى تلك الشّابة الجميلة أخلطت أوراقه وعصفت به في دوّامة من الأسئلة المربكة: (لماذا لم يعد الزّواج مرّة أخرى؟ وهل سيظلّ أعزبا مدى الحياة؟ وما معنى الاستقرار من دون وجود زوجة؟).

تذكّر أنّ تلك الأسئلة لم تكن أسئلته هو وحده، ولكن كانت هي أيضا أسئلة أهله، وكلّ الذين عرفهم: كانوا يلومونه كثيرا

لبقائه أعزبا كلّ تلك المدّة الطّويلة، بينما كان الرّجال من حوله يتزوّجون، ويعيدون الزّواج، بل ويعتبرون من له زوجة واحدة أقلّ مكانة من المعدّد المزواج، لم يستطيعوا فهم حالة يكون فيها الرّجل صاحب مال ومكانة، ثمّ لا يرغب بعد ذلك في أن تكون له زوجة، وأولاد كثيرون. كان أكثر هؤلاء لوما له، هو صديقه قدّور بن عودة، الذي ظلّ يلحّ عليه أن يتزوّج، بل وعرض عليه في إحدى المرّات أن يزوّجه إحدى بناته، ولكن من دون جدوى، فقد أصرّ سليمان مرجاجو على البقاء كما هو لأنّه ببساطة، كان يحسّ أنّ حياته لم تكن يوما مستقرّة، فمنذ أن رحل في بداية شبابه من قريون إلى معسكر، وهو يشعر أنّ شيئا ما يحول بينه وبين فكرة الزّواج في حدّ ذاتها: الوباء الذي أخّر رجوعه إلى أهله، سفره إلى وهران الذي لم يخطر يوما على باله، سنوات سجنه المريرة، رباطه في جبل المائدة وقتاله المستميت إلى غاية فتح وهران، الرّحيل من معسكر إلى وهران شغف القراءة والكتب، غوايات أسفار التّجارة، مخاوف وهواجس الحروب الأهليّة...

إنّ أهمّ شبح ظلّ يطارد سليمان مرجاجو عندما كانت تعرض عليه فكرة الزّواج في تلك الظّروف، أن يصبح في رقبته زوجة وأولاد، ويكون مصيرهم كمصير ابنته زينب، ولقد حاول الكثير من العلماء الذين صاحبهم أن يبيّنوا له خطأ تلك التوجّسات

والمخاوف، وأنّه لو فكّر كلّ النّاس كما كان يفكّر هو، لما تزوّج أحد، والحال أنّ الحياة كلّها تقلّبات ومخاطر لا تنتهي ولا يمكن لأحد توقّع حدوثها في أيّة لحظة، عندها كان يتملّص بأنّه سيعيد النّظر في قراره، إن هو ألقى عن كاهله عصا الترحال في يوم من الأيّام، وهذا ما كان يفكّر به سليمان مرجاجو عندما كان منزويا في غرفته، إذ أحسّ بأنّه لم يعد له مبرّر في البقاء أعزبا بعدما قرّر أن يستقرّ نهائيا في المحروسة، ويزاول تجارته فيها، ولكن ثمّة شكوك ساورته في أن تحظى الفكرة التي راودته بالنّجاح فقد فكّر أنّ خطبة كريمة الرّايس صالح بقدر ما تبعث في نفسه اطمئنانا غامضا، فإنّها تشعره بالتردّد، فهل سيقبل به الرّايس صالح صهرا له، وهما ليسا بنفس المرتبة الاجتماعية، فالرّايس صالح الآن هو واحد من وجهاء المدينة، وابنه كذلك تاجر معروف. ولكنّ سليمان مرجاجو قدّر أنّ الرّايس صالح رغم كلّ شيء يبدو إنسانا رائعا، ولا يمكنه أن يرفض خطبة رجل مستور الحال، وقادر على أن يحفظ كرامة ابنته، وإن لم يكن قادرا أن يجعلها تعيش في نفس الرّفاهية التي كانت تعيشها في قصر أبيها وتجربة الزّواج السّابقة لابنته تجعله يفكّر كثيرا قبل أن يعيد تزويجها لرجل لمجرّد مكانته الاجتماعية، أو درجة نفوذه وسلطانه. لم تكن تلك الاعتبارات السّابقة هي الوحيدة التي جعلت سليمان يفكّر جادّا في طلب مصاهرة الرّايس صالح

ولكنّه كان متأكّدا أيضا أنّ الله قد منحه إشارات واضحة للمضي في ذلك الطّريق، وليس مجرّد مصادفات عابرة، فتعرّفه على الرّايس صالح، وزيارته لبيته، ورؤيته لابنته عرضا، وحتّى تلك الشّراكة التي عرضها عليه السيّد علي، كلّها جعلته يحزم أمره في أن يتقدّم لخطبتها حال عودته من الجوامع، ثمّ سأل نفسه لماذا ينتظر إلى غاية عودته من زيارة أهله، فربّما قد يتأخّر قليلا، ويتقدّم أحدهم لخطبتها قبله، ففكّر أن يوصي الباش رايس عمر قبل أن يبحر في الغد لينقل للرّايس صالح رغبته في مصاهرته، وقد تكون تلك فرصة مواتية ليفكّر جيّدا قبل أن يبلّغه بقراره عند العودة.

وفي لحظة ما شعر سليمان مرجاجو أنّ الرّايس صالح سيوافق على هذا الزّواج، بقدر شعوره أيضا أنّه قد اتّخذ القرار الصّحيح مهما كانت نتيجة ردّ الرّايس صالح.

.12

من كلّ تلك المدن التي زارها سليمان مرجاجو، أو عاش فيها حينا من الدّهر، كان يحسّ في نفسه أنّه مسكون بواحدة لم تغادر ذكرياته، فقد كانت مغموسة في ماء طفولته، ومعجونة في دمه وروحه. كانت قسنطينة هي أوّل مدينة تفتّحت عيناه على جمالها الطبيعي الأخّاذ، وهو الذي لم ير إلى ذلك الحين إلّا الخيم السّوداء، والمروج الممتدة التي لا يحدّها البصر. لا يزال يذكر أوّل يوم عبر فيه هو وأخوه أحمد فوق قنطرة عالية إلى تلك المدينة الغامضة المبنية على صخرة كبيرة معلّقة في الهواء ولم يكتشف إلّا بعد مدّة من إقامته فيها أنّها كانت تشبه عشّ نسر، وتحته هوّة سحيقة تجري فيها الوديان التي تتلألأ منها مياه لجينية عذبة، يومها كان يركب أمام أخيه على صهوة حصان أبيض، وبعينين مسحورتين راح يقلّب بصره في أرجائها: مرّة إلى بيوتها العالية، فكان يسأل نفسه كلّما رأى أحدهم يطلّ برأسه من شبابيك عالية: كيف أمكن لهؤلاء أن يصعدوا إلى ذلك المكان المرتفع؟ ومرّة أخرى إلى أزقّتها المرصوفة بالحجارة والمتخمة بحشود هائلة من النّاس، فكان يسأل نفسه أيضا وكيف يتحمّل هؤلاء أن يعيشوا وسط كلّ ذلك الضجيج والصّخب، اللّذين يكادان يصمّان الآذان؟.

عبرت تلك الذّكريات رأس سليمان مرجاجو بعد أن سلّم كتاب الدّاي أحمد باشا إلى باي قسنطينة، وكان في طريقه إلى زيارة البيت الذي آواه نحو أربع سنين، بيت المحفوظ الذي كان يدعوه (عمّي المحفوظ)، وحليمة التي كان يعتبرها كأمّه الميّتة فيناديها (أمّا حليمة)، ولأنّ زواج الأخيرين لم يثمر أولادا، فقد كانا يعتبرانه ولدهما الذي لم ينجباه، وغمراه بكلّ الحبّ والرّعاية.

وعندما كان مرجاجو في ناصية شارع الدّباغين الذي ينتهي عنده دكّان عمّه المحفوظ، لفت انتباهه منظر طفل مقبل لم يتجاوز العشر سنين. كان يحمل في إحدى يديه قفّة مهترئة ويلبس قميصا أبيض، فوقه برنس قديم مغبرّ، وعلى رأسه شاشية حمراء يتدلّى من أعلاها إلى الخلف خيط أسود طويل فتخيّل نفسه ذلك الطّفل قبل نحو ثلاثين سنة، عندما كانت تعطيه (أمّا حليمة) القفّة المصنوعة من الدّوم، وتوصيه بأن يشتري لها أغراضا من السّوق، ولم يكن ذلك ممكنا إلّا في يومي عطلته الأسبوعية، فكان يمرّ من هناك على صديق طفولته سفيان بن المسعود الدبّاغ، فيترافقان إلى السّوق كما كانا يترافقان إلى المدرسة، وما إن يؤدّي ما كلّفته به (أمّا حليمة) حتّى ينطلق مع صديقه في الأزّقة الضيّقة كعصفورين صغيرين فرّا لتوّهما من قفص محكم، حينها لا يتكّلمان عن متون النّحو

والفقه وقصائد الشّعر. بل يلعبان كلّ ما يصوّره لهما خيالهما الغضّ، فكانا مع أطفال الحي، يمتطون العصيّ، كما يمتطي الفرسان صهوات خيولهم... ويرفعون بقبضات أيديهم الصّغيرة أخشابا صغيرة ويلوّحون بها في السّماء عاليا كالسّيوف المصلتة، ويتصايحون حتّى تتقطّع حناجرهم عندما يشنّون غاراتهم الوهميّة، حتّى أنّهم في كثير من الأحيان كانوا يزعجون النّاس في بيوتهم، والتجّار في دكاكينهم، فيخرج لهم من يتوعّدهم بالعقاب الشّديد، وخاصّة في قيظ الأصياف الحارقة حينما يهرع أكثر سكّان المدينة إلى البيوت لأخذ قيلولة هادئة، فكان مرجاجو ساعتها يطمئن صديقه بأنّهم لن يفعلوا لهما شيئا، ويقصّ عليه ما كان يهدّده به رجال الجوامع أطفال القبيلة من العقاب الوخيم الذي سينزله بهم ذو الرّأس الكبير عندما يسمع كلامهم البذيء فيسأله صديقه سفيان مأخوذا عن شكل ذلك الأسد وحجمه فيأخذ سليمان مرجاجو حجرا ويرسم له على الرّصيف صورة الأسد، كما كان يفعل مع أخيه عبد الرّحمن وابن أخيه خالد وباقي شلّة الأطفال في القبيلة. كان يشرح لسفيان بثقة زائدة أجزاء جسد ذي الرّأس الكبير، كما يشرح أساتذة الكتّانية المتون العلميّة، ولكنّ مرجاجو لم يكن متأكّدا في قرارة نفسه من الصّورة الحقيقية الكاملة لذي الرّأس الكبير، فلم يكن يرسمه إلّا كما يوحيه له خياله الجامح، ويكتفي بإعادة تجميع

صور مضبّبة ظلّت عالقة في ذاكرته، منذ أن رأى فرسان القبيلة يأتون بأشلاء الأسد محمولة على الأخشاب، فكان يبدو له الرّسم في أحيان كثيرة يشبه صورة كلب معدّل الرّأس، ولكن ذلك لم يكن مهمّا، فالمهمّ أن يسلب خيال سفيان الذي كان يثق في رسوماته، ويكتفي بطرح الأسئلة فقط. لم يكن سفيان يثق ثقة عمياء في معلومات سليمان مرجاجو فحسب، بل كان يحتمي به، ويستقوي به على أطفال حي الدّباغين، والأحياء المجاورة له، فقد أصبح صديقا له منذ ذلك اليوم الذي وجده فيه مرجاجو، محاصرا من بين مجموعة من الأطفال المسعورين، الذين كانوا يريدون أن يفتكّوا منه حبّات البرتقال التي كلّفته أمّه بحملها إلى إحدى خالاته، فصادف ذلك مرور مرجاجو من هناك في تلك اللّحظة، وعرف الطّفل المحاصر الذي كان يدرس معه في الكتّانية، فتخيّل نفسه أسدا كأسود قريون التي لا تخاف شيئا، وهدّدهم بأن يهجم عليهم جميعا. كانوا يسخرون منه، وعرضوا عليه أن ينازل أحدهم، فتقدّم أكبرهم وكان سمينا، فالتحما بجسديهما الصّغيرين، وتعاركا عراكا ضاريا، ولكنّ سليمان مرجاجو كان أقوى عريكة من منازله الذي أخذ في البكاء والوعيد بأن يأتي بأخيه الأكبر لينتقم منه شرّ انتقام، ولكنّ مرجاجو لم يكن يأبه لتهديداته، واكتفى بأن يشاهد مع سفيان انسحاب العصبة الهاربة بعيدا، وهي مذؤومة

مدحورة. لم يكن أمام سفيان يومها إلّا أن يعرض برتقالة من تلك البرتقالات الجميلة لمخلّصه وصديقه الجديد، فنبّهه مرجاجو بسحنة واعظ صادق أنّها أمانة، وأنّ والده الحاج محمّد سيغضب إن هو أخذها، فلطالما ضبطه يسطو على بعض الأشياء التي كان يوصيه أن يأخذها لأحدهم في القبيلة. لقد تذكّر سليمان أيضا أنّ أولئك الصبية أصبحوا أصدقاءه المقرّبين بعد ذلك، فكان اسم الطّفل السّمين الباهي، وأمّا الآخران فكان أحدهما يقال له منصور، وكان أعرجا، والآخر يدعى ناصرا. كانوا يجتمعون في أيّام اللّعب، ويتكلّمون عن باقي الشّلل المارقة، فيحرّضهم الباهي الذي كان متكلّما ماهرا، بأنّ شلّة من الحيّ الفلاني، تتحدّاهم أن يقوموا بمنازلتها في معركة حاسمة، فكان الكرّ والفرّ، وعندما يحدث وأن يجرّوا أذيال الخيبة بعد مواجهة جيش عرمرم من الأطفال المتحالفين، كان أكثر واحد يدفع ضريبة الانسحاب هو منصور الأعرج، الذي لا يقوى على الجري.

كانت الرّدهة معتمة، فانتظر مرجاجو حتّى يظهر له السّلم الذي يؤدّي إلى بيت عمّه المحفوظ في الطّابق الأعلى، وكان تحت ذلك البيت يوجد الدّكان، الذي كان يعمل فيه المحفوظ حلّاقا وحجّاما، ولكنّ سليمان لمّا مرّ على الدكّان وجده قد تحوّل محلّا للعطارة، فسأل الشّاب الذي كان يبيع هناك عن عمّه

المحفوظ، فأخبره أنّه لا يزال يسكن في نفس البيت. دقّ سليمان الباب، وانتظر قليلا حتّى ظهرت له عجوز قد احدودب ظهرها وحفرت التجاعيد وجهها. كانت تحمل في يدها عصا، وتنظر إليه بنظرة من يحاول أن يقرأ في وجه زائره ملامح مألوفة، فلمّا عجزت سألته من يكون، فابتسم في وجهها، وقال لها إنّه ابنها سليمان بن محمّد الهلالي، فوقفت مبهوتة برهة من الوقت وامتلأت عيناها بالدّموع، وراح سليمان مرجاجو يقبّل رأسها فشمّ من لفّات الشدّة التي كانت على رأسها رائحة العنبر، الذي كانت تحبّ دائما أن تتعطّر به. كانت تسأله بحنان غامر عن أحواله، وأحوال أهله، وبعينين دامعتين راحت تؤنّبه بأنّه لم يقم بزيارتها منذ أن فصلوه عن الدّراسة في المدرسة الكتّانية ولم يفتها أن تلاحظ أنّه أصبح رجلا مهابا ذا طول فارع، بعد أن كان طفلا ضئيلا وضعيفا، وتساءلت عن تلك النّدبة التي في جانب وجهه، وهل تزوّج وأنجب أطفالا! كانت أسئلتها كثيرة ومزدحمة، فلم يستطع أن يجاريها بإجابات تشفي غليل شوقها إليه. ولكنّه ابتسم في وجهها ابتسامة امتنان عن كلّ ذلك الحبّ الذي كان يملأ تلك النّفس التي تفيض حنانا. دخل مرجاجو لبيت عمّه المحفوظ، وكان يحمل في يده بعض الفواكه الموسمية، فسمع حينها صوتا مبحوحا واهنا، ينادي زوجته حليمة عن الضّيف الغريب، الذي كانت تكلّمه بكلّ ذلك

الشّوق، فزفّت له النّبأ الجميل (إنّه ابنك سليمان بن محمّد الهلالي) وبقدر فرح سليمان مرجاجو برؤية عمّه المحفوظ الذي كان مقعدا، بقدر حزنه عندما أسرع لتقبيل رأسه ويده، فراح الأخير يتحسّس وجه مرجاجو بكفّ يده الأخرى الدّافئة والمرتعشة. أدرك مرجاجو حينها أنّ عمّه المحفوظ كان ضريرا فلم يستطع أن يمنع عبرات حرّى نزلت من عينيه، وأحسّ أنّه لا يزال ذلك الطّفل الذي لم يكبر يوما.

وفي أثناء حديثه معهما أخبراه أنّهما يعيشان بأجرة كراء الدكّان، بعد أن فقد ربّ البيت بصره. كانا بسيطين وقنوعين كما عرفهما في صغره، وراحا يذكّرانه بطفولته البعيدة، عندما جاء لقسنطينة، فكان يأخذه عمّه المحفوظ بنفسه إلى المدرسة الكتّانية في الأسابيع الأولى، وذكّره بذلك اليوم الذي غطّت فيه الّثلوج شوارع قسنطينة، فاستغفلهما وخرج من البيت، فلم يعثروا عليه إلّا في المساء. كان مرجاجو يذكر ذلك اليوم جيّدا فقد استهوته ندف الثّلج المتساقط، فتمنّى يومها لو كان معه عبد الرّحمن وخالد، ليتقاذفوا بينهم كرات الثّلج، كما كانوا يفعلون ذلك عند سفوح جبل قريون، ولم يشعر، وهو يمشي في الشّوارع، أنّه كان قد ابتعد كثيرا عن بيت عمّه المحفوظ حتّى وجد نفسه في متاهة من الأزقّة الضيّقة والمتشابهة، وظلّ النّاس يسألونه أين يسكن، ومن هو والده؟ فيقول لهم: (لا أدري...

اسمي سليمان بن محمّد الهلالي) ظانّا أنّ الجميع يعرفون والده ولكنّه مع ذلك كان فطنا عندما أخبرهم في آخر لحظة أنّه كان يدرس في الكتّانية، ولمّا أخذوه هناك، عرفه أحد الطّلبة الكبار الذين كانوا يدرسون في نفس المدرسة، ولا يزال يذكر عندما أوصلوه إلى شارع الدبّاغين، كيف وجد عمّه المحفوظ وجيرانه مفزوعين بعد أن كانوا يتوجّسون خيفة من أن يكون الطّفل قد أصابه مكروه، أو سقط في هاوية سحيقة، فلم يهدأ لهم قرار بعد أن ظلّوا طوال النّهار يذرعون شوارع قسنطينة بحثا عنه. يومها أخذه عمّه المحفوظ إلى البيت بملابسه الرثّة التي كانت تقطر ماء، فنزعت له حليمة تلك الثّياب، وألبسته البرنس الوحيد الذي كان يرتديه عندما يذهب للكتّانية، وأوقدت له نارا يتدفّأ عليها بعد أن كانت فرائصه ترتجف من البرد.

وقبل أن يغادر سليمان مرجاجو بيت عمّه المحفوظ وضع صرّة من المال في يد (أمّا حليمة) ووعدها أنّه سيعود لزيارتهما مرّة أخرى. خرج مرجاجو من هناك وفي خاطره أن يعرّج على صديقه سفيان بن مسعود الدبّاغ ليسأل عنه، وقد مرّ في طريقه على دكّان أبيه في شارع الدبّاغين فوجده مغلقا، فقرّر أن يعود للسّؤال عنه بعد أن يزور بيت عمّه المحفوظ، ولكن ومع رجوعه في المرّة الثانية إلى بيت ودكّان مسعود الدبّاغ اللّذين كانا متجاورين، أخبره جيرانه أنّه قد مات منذ أكثر من خمس عشرة

سنة، وأنّ ابنه سفيان يسكن الآن في شارع السرّاجين، بعدما أصبح معلما في المدرسة الكتّانية، ورغم أنّ مرجاجو حزن كثيرا لمّا علم أنّ والد صديقه قد مات، فإنّه كان سعيدا أن يصبح صديقه سفيان واحدا من أساتيذ الكتّانية، وزادت فرحته تلك عندما ذهب إلى مدرسته السّابقة، فثارت في نفسه ذكريات طفولته البعيدة. وبينما كان يمشي بين جنبات المدرسة، وفي ساحتها الواسعة التي تحيط بها حجرات الدّرس، أقبل عليه أحدهم، وكان نازلا من سلم يؤدّي إلى الطّابق العلوي. كان ذلك الرّجل فخم الهيئة، جميل الصّورة تعبق ثيابه بريح طيّبة فسأل الزّائر الغريب، بوجه بشوش، إن كان يبحث عن أحد فأخبره مرجاجو أنّه يريد أن يقابل أستاذا يدعى سفيان بن مسعود الدبّاغ، وهو أحد أصدقاء طفولته، الذين درسوا معه في الكتّانية، تأمّل الرّجل جيّدا في وجه وهيئة محدّثه، الذي كان أسمر البشرة، وذا طول لافت، ثمّ لاحت منه ابتسامة ظريفة وقال:

. أنا هو سفيان بن مسعود الدبّاغ الذي تبحث عنه، ولا تقل لي إنّك أنت هو سليمان بن محمّد الهلالي.

. بل هو بشحمه ولحمه.

كانت مفاجأة سارّة أن يلتقي الصّديقان بعد كلّ ذلك الزّمن فتعانقا عناقا حارّا، وعرض سفيان على صديقه أن يذهب معه

للبيت ليتناولا الغداء معا، ولكنّ مرجاجو أخبره أنّه مستعجل ولا يريد المكوث طويلا لأنّه يريد الخروج من قسنطينة من يومه لزيارة أهله الذين لم يسمع عنهم أيّة أخبار منذ سنوات طويلة ولكنّ سفيان ألزمه بأن يصعد معه إلى إحدى الحجرات العلوية ليرتشف معه فنجانا من القهوة. كان أوّل سؤال راود عقل مرجاجو أن يسأل عنه سفيان، أن يعرف أخبار أصدقائهما الآخرين، سكت سفيان برهة من الزّمن: ثمّ قال:

. ما أعلمه أنّ منصور الأعرج هو الآن في عنّابة، ولكنّي لم أعد أعرف أخباره بعد أن رحلت عن شارع الدّباغين حيث يوجد إخوته، واخترت السّكن إلى جوار المدرسة كي أكون قريبا من تلاميذي. وأمّا ناصر فقد سافر مع عائلته منذ زمن طويل إلى تونس، فوالده كما تعلم كان تاجرا متنقّلا؛ أكثر أسفاره ما بين تونس وقسنطينة. وإنّه لمن المؤسف أن أخبرك أنّ الباهي قد قتل قبل سنتين عند أسوار قسنطينة، عندما قام أحمد بن الأحرش بمحاصرة المدينة، بعد أن أصبحت جلّ النّواحي الشّرقية تحت سلطانه، فاستغلّ خروج الباي عثمان بن محمّد الأكحل إلى سطيف لجمع الحقوق المخزنية، وزحف بالآلاف من جنوده الذين تجمّعوا حوله من قبائل الشّرق إلى قسنطينة فاستمات النّاس في الدّفاع عن المدينة، والتفّوا حول أحمد بن الأبيض الذي خرج في ألف من المقاتلين، وهزموا جيش

المحاصرين في (عقبة السمارة) بعد أن أصابوا قائدهم ابن الأحرش إصابة بليغة في رجله، فحمل جريحا، ورجع جيش أحمد بن الأبيض للتّحصّن وراء أسوار قسنطينة، وكان من ضحايا ذلك النزال صديقنا الباهي رحمه الله.

كان مرجاجو يسمع كلام سفيان، ومن حديث الأخير عن القتل، أحسّ وكأنّه بدأ يشمّ رائحة أخرى غير تلك الرّائحة الجميلة التي كان يضعها صديقه على ثيابه. فمنذ أن سافر بتلك الرؤوس المقطوعة من وهران إلى الجزائر، أصبح لكلمة (قتل) بكلّ اشتقاقاتها رائحة أيضا، ولكنّها رائحة كريهة وشديدة العفونة. مع ذلك حاول مرجاجو أن يغالب ذلك الشّعور الطّارئ، واستأنف طرح أسئلته الملحّة على صديقه القديم:

. هل صحيح أنّ كثيرا من أنصار ابن الأحرش قد تفرّقوا عنه وهو الآن يختفي في مكان ما بعيدا عن أعين الباي والقبائل المتحالفة معه؟

. لقد ألجأته الهزائم الأخيرة التي مني بها للاختفاء بين شعب الجبال الوعرة، ويقال إنّه الآن يريد الهروب إلى الغرب للالتحاق بفلول حليفه ابن الشريف الدّرقاوي. أظنّ أنّ شوكة ابن الأحرش قد ضعفت، ولن يستطيع المقاومة طويلا بعدما نجح الباي عبد الله بن إسماعيل في استمالة كثير من القبائل بالأموال والهدايا بعد أن كانت إلى صفّ الرّجل الثّائر على حكم

الأتراك، وحتّى أعيان الزّاوية الرّحمانية وقفوا ضدّ ابن الأحرش وهم اليوم من أشدّ أعدائه.

. هل سبق لك أن رأيت أحمد بن الأحرش؟

. أجل. لقد رأيته قبل سنوات عندما كنت أدرس في جامع الزّيتونة. لم يكن وقتها قد مرّ وقت طويل على نزوله هو وأتباعه في تونس التي جاؤوا إليها على متن بعض السّفن الإنجليزية. أذكر جيّدا صورته، فقد كان رجلا أشقر طويلا من أهل المغرب، وله سحر عجيب في الكلام خلب به أفئدة المريدين الكثيرين الذين تحلّقوا من حوله، كان يحدّثهم عن جهادهم للفرنسيين في مصر، وكيف استطاعوا دحر جيش نابليون، ويحثّهم لجهاد الأتراك الذين أفسدوا في الأرض، وحكموا بالجور، وأنّه لا سبيل لهم في الخلاص من نيرهم إلّا بالانضمام إليه. كان يوهمهم أنّه صاحب الوقت والمهدي المنتظر، ويأتيهم بأشياء غريبة؛ شعوذات وحيل غامضة، فيظهر لهم البعر زبيبا، والرّوث تمرا والحجارة دراهم. لقد كان باي تونس ذكيا، عندما أدرك أنّ ذلك الرّجل الغريب والجموع المتزايدة التي كانت تتجمّع حوله ستكون خطرا على عرشه، فقرّبه إليه وحاول إبعاده عنه بعدما عرض عليه مساعداته لقتال الحكام الأتراك في الجزائر، كما ساعده الإنجليز قبل ذلك بالأسلحة والمال نكاية في منافسيهم

الفرنسيين، الذين كانوا يستحوذون على ثروة المرجان الثّمين في سواحل القالة مقابل إتاوات لخزينة الإيّالة.

. وكيف هي أحوال النّاس اليوم في بايلك الشّرق؟

. لقد بدأ النّاس يلتقطون أنفاسهم، بعد كلّ ما حلّ بهم من تلك المحن المدلهمّة، والتي تفاقمت مع اشتداد المجاعة والقحط، وارتفاع أسعار البرّ والشّعير، حتّى بيعت المكاييل الصغيرة منها برؤوس الماشية والأبقار، وأغارت القبائل على بعضها البعض بحثا عن القوت، فكانت هي أكثر من تحمّل أعباء الحرب.

كان سليمان مرجاجو يودّ لو أنّه بقي وقتا أطول مع صديق طفولته سفيان بن مسعود الدّباغ، وأنّ تلك السّاعة التي قضياها معا في المدرسة الكتّانية قد امتدّت إلى ساعات وأيّام أخرى، ليبثّ له كلّ ما في نفسه من أشجان، ويحدّثه بذكرياتهما منذ أن كانا طفلين صغيرين يتمرّغان في تراب قسنطينة، ولكنّه اكتفى بأن يقول لصاحبه إنّه سوف يأتي لزيارته يوما ما، كما وعد عمّه المحفوظ، و(أمّا حليمة). وقبل أن يضع سليمان مرجاجو قدميه عند عتبة باب الكتّانية خارجا سأل نفسه إن كان الله قد كتب له في العمر بقية حتّى ينجز وعده، ويعود إلى ذلك المكان مرّة أخرى، ولكنّه فكّر أيضا أنّه كان أقرب من أيّ

وقت مضى لأن يصل إلى مراده، ويطفئ نار أشواقه المتأجّجة منذ مدّة بعيدة.

.13.

سيتذكّر سليمان مرجاجو، ولمدّة طويلة، حتّى بعد أن تزوّج وأصبح له أولاد، زيارته التي كان ينتظرها بفارغ الصّبر إلى الجوامع، وكيف أنّه وصل إليها من قسنطينة في يوم عاصف فوجدها قاعا صفصفا، لا يسمع من سفوحها الممتدّة إلّا صفير الرّيح، ونعيق الغربان. سيتذكّر أنّه لم يفهم وقتها شيئا، وظلّ مبهوتا، يمشي فوق رسومها الدّارسة، ويرنو مذعورا إلى أطلالها التي لم يبق منها إلّا مواقد بائدة، وأثافي مسودّة، ورماد طمسته أصابع الرّيح، حتّى المطامير كانت فاغرة أفواهها، وتحوّلت إلى برك تتجمّع فيها مياه الأمطار، بعدما كانت مخازن محكمة لحفظ الحبوب، سأل نفسه بلوعة وحسرة: (أين ذهبوا؟)، وفي لحظة ما أحسّ أنّ رجليه تحجرتا في مكانهما، فلم يعد باستطاعته حينها أن يتقدّم خطوة واحدة، وانتابه شعور أنّ ريحا تهوي به في مكان سحيق، لم يجد يومها أحدا يكلّمه إلّا الأموات، الذين كانوا يرقدون بالعشرات في أجداثهم، ولمّا رأى أنّهم لم يكونوا يسمعون كلامه ولا صراخه، سقط في يده وجلس عند صخرة كبيرة يحملق في ذلك الخراب الذي حلّ بالمكان.

سيذكر لمدّة طويلة أنّه لم يجد أمامه إلّا أن يتوجّه من هناك إلى القالة، حيث كانت تسكن أخته أم الخير وزوجها عمر ابن عمّه عيسى، وأنّهما عند وصوله راحا يحدثانه طويلا أنّ قبيلة الجوامع رحلت إلى الجنوب كما جاءت ذات يوم، بعدما اكتوت بالحرب، كما اكتوت باقي القبائل، وأنّ أقدام أحمد بن الأحرش مرّت من هناك، فلم يخرج منها إلّا بعد أن أخذ معه خيار شباب القبيلة الذين سحرهم بعجيب كلامه، وغريب حيله. سيتذكّر قولهما إنّه لم يبق بيت من بيوت الجوامع إلّا وتجرّع من كأس الموت، بعدما توالت أخبار مقتل أفرادها تباعا، الواحد بعد الآخر، وسيذكر أنّهما قصّا عليه أنّ القحط والجوع مرّا من هناك أيضا، فوطئا بنعليهما القاسيين بطون النّاس حتّى شربوا دماء البهائم، وأكلوا جيفها. سيذكر سليمان مرجاجو أنّ رجلا عظيما سوف لن تحتفي به صحف التّاريخ احتفاءها بسير الدّايات والبايات، يدعى الحاج أحمد الهلالي، فتح المطامير التي كان يدّخر فيها القمح لأيّام الشدّة، وأنفق آخر حبّة منها في سبيل الله للمحتاجين، وسيحمل بعدها نساء وذراري القبيلة بعد أن تخلّى عنهم معيلوهم، الذين انقسموا أيدي سبأ بين المتقاتلين حتّى من دون أن يسأل عن أخيه وابنيه، الذين خرجوا مع ابن الأحرش، ولم يعودوا منذ ذلك اليوم الذي غادروا فيه القبيلة.

سيتذكر، وسيتذكر جيّدا أنّ ما حدّثه به أبوه الحاج محمّد منذ عقود طويلة لم يكن أضغاث أحلام بل كانت ما تخبّئه ظروف الغيب للقبيلة. سيذكر أنّه قبل أن يعود إلى المحروسة سافر أخيرا إلى بسكرة حيث زار أهله، والتقى بابنته زينب التي تزوّجت، وأنجبت بنتين، وأنّه احتضنها كما لم يحتضنها يوما وقبل رأس أخيه الحاج أحمد الهلالي الذي هدّت المحنة جسده وأنهكته الأمراض وتحوّل لون لحيته من السّواد إلى لون الفضّة تماما كما كانت لحية أبيه، لذلك سيتذكّر مرجاجو طويلا أنّه عندما رآه أوّل مرّة أحسّ أنّ الحاج محمّد الهلالي بعث من جديد، كان يحمل مسبحة كمسبحته، ويلبس برنسا كالّذي كان يلبسه، وحينما حاول أن يسأله عن كلّ ما حلّ بالقبيلة وأبنائها كان يداري حزنه، ويحاول أن ينسى مصابه، بالحديث عن أشياء أخرى، تخفّف عنه وقع ذكرياته الجارحة، فيتكلّم عن رحلة حجّه إلى الحجاز، وصلاته في بيت المقدس كما كان يفعل الحاج محمّد.

سيتذكّرون جميعا أنّ أسود وفهود قريون كانت أرحم على الجوامع من جميع المصائب التي حلّت بها، وأنّها لم تستطع طيلة عقود أن تشتّت شملهم طرائق قددا، كما فعلت الحرب التي قتّلت فرسانهم، وجوّعت أبناءهم وذراريهم، وشرّدتهم في الأرض.

وسيتذكّر هو أنّه لم يتوقّع أنّ ما هو أسوأ كان في انتظاره لمّا عاد إلى الجزائر، عندما عرف هويّة ذلك الرّجل الذي كان يتعقّب آثاره منذ اليوم الذي وقف فيه عند الصرّاف اليهودي فوجد أنّه لم يكن إلّا شابا صغيرا فارّا من جحيم الحرب، وكان ذلك الشّاب هو ابن أخيه وأخو ابنته من الرّضاعة (يحي)، وقد قصّ عليه كيف كان يريد أن يعرف ملامح رجل طويل صادفه في السّوق منذ مدّة، وكان يشبه عمّه سليمان بن محمّد الهلالي الذي لم يره إلّا في مناسبتين مرّ عليهما زمن بعيد، ولمّا تأكّد أنّ ذلك الرّجل هو عمّه تهيّب أن يواجهه بالأخبار الحزينة والصّادمة، وانتظر مدّة طويلة قبل أن يراه مرّة أخرى في شوارع المحروسة، ويقصّ عليه تفاصيل كثيرة، من يوم أن خرج هو وأخوه خالد وعمّه عبد الرّحمن مع ابن الأحرش إلى اليوم الذي قرّروا فيه السّفر إلى الجهة الغربية للالتحاق بصفوف جيش الشّريف الدّرقاوي، بعد أن هزموا عند أسوار قسنطينة، ولاحت ملامح التشتّت والتصدعّ بين أنصار قائدهم الملهم في شرق البلاد.

كلّ ذلك سيتذكّره سليمان مرجاجو، ويحاول جاهدا أن ينساه، ولكنّ ذلك اللّقاء مع يحي ابن أخيه كشف له عن شيء مزلزل سوف لن ينساه أبدا، ويحمله إلى قبره كما يحمل تلك النّدبة على وجهه: (أنّه كان في مهمّة قذرة ذات رحلة بحرية

مطلع العام 1806 من مرسى الكبير بوهران إلى الجزائر على متن فرقاطة حربية تحمل ستمائة رأس مقطوع. كان من بينها رأس أخيه عبد الرّحمن، ورأس ابن أخيه خالد.)